وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
مركز السيرة والسنة

سلسلة أضواء
على السنة النبوية
(٥)

خواطر وتأملات في السيرة النبوية الشريفة

تأليف
الدكتور/ محمود محمد عمارة

مراجعة
الدكتور/ محمد الطيب النجار

القاهرة
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ

« قرآن كريم »

إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ

« حديث شريف »

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

رسالات الأنبياء الى الناس تالدة خالدة تمتد جـذورها الى الانسان الأول وهو آدم أبو البشر وتنتهى فروعها بانتهاء هذا الجنس البشرى وقيام الناس لرب العالمين .

واذا كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسـلم هو خاتم الرسل والأنبياء فان رسالته لا تزال متصلة الى يوم الناس هـذا يحملها خلفاؤه والعلماء من أمته على توالى الأجيال والقرون .

ولا ريب أن سيرة هذا النبى العظيم انما هى الأساس الكامل لدعوته العظيمة التى أضاءت المشارق والمغارب ومـلأت العـالم بالهدى والنور ومن أجل ذلك كانت أهمية هذه السـيرة الوضاءة العطرة للمسلمين بل للانسانية جمعاء حيث تناقلتها الأمم والشعوب جيلا بعد جيل ثم سجلت بعد ذلك على مختلف العصور فى كتـب يضيق بها الحصر والتعداد وسوف تظل الكتابة فيها متصلة الحلقات الى أن تنفطر السماء وتنكدر النجوم وتبدل الأرض غـير الأرض والسماوات .

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا الآن هو خواطر كريمة فى بعض الجوانب من السيرة النبوية المباركة وتأملات دقيقة فى طائفة من الأحداث التى مرت بالرسول صلى الله عليه وسلم أو مر هو بها . ومحاولة جادة لاستخلاص العبر والعظات من هذه الأحداث الخالدة المجـــيدة ..

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى حياته كالشجرة الطيبة التى ثبتت أصولها وانبسطت ظلالها وآتت أكلها كل حـــين باذن ربها ، بل كالمشكاة المنيرة يتالق ضوؤها ذات اليمين وذات الشمال وفى كل مجال ويهدى بها الله من يشاء من عباده ، فلمـــا قضى الله على رسوله أن يلحق بالرفيق الأعلى ويوضـــع جسده الطاهر فى باطن الأرض رجع الناس بسيرته نورا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم وسوف يظل هذا النور هداية للناس ورشادا ما دامت السماوات والأرض وما بقى الوجود كله)) .

وهذه الخواطر الكريمة والتأملات الدقيقة التى سجلها العالم الجليل الدكتور محمود محمد عمارة الأستاذ بكلية أصـــول الدين والدعوة بجامعة الأزهر ، هذه الخواطر والتأملات تتركز حـــول العبر المستفادة من أحداث السيرة النبوية وتهدف الى تصـــوير تلك الأحداث بأسلوب رقيق وبيان واضح يكشف النقاب عمـــا وراءها من أسرار تؤنس السارين فى بيداء الحياة وتضع أقـــدامهم على الطريق السوى وتخرجهم من الظلمات الى النور ، وســـوف يجد القارىء فى هذه الخواطر اجابة شافية لمـــا يجيش فى نفسه من تساؤلات ، وسوف يجد كذلك ـــ من الطمانينة القلبية ما يدفعه الى القدوة الصالحة والتاسى بالأدب المحمدى والسلوك الاسلامى.

وهاكم بعض أمثلة من هذه الخواطر والتأملات ..

فحينما يتحدث عن رعى الرسول للغنم يقول : ((ان رعى الغنم كسب شريف وتربية نفسية وترويض عـلى العطف عـلى الضعيف ولقد أتاح رعى الغنم لمحمد صلى الله عليه وسلم فرصة ذهبية اكتملت فيها ملكاته النفسية وقواه الجسدية والعقلية وكان ذلك تأكيدا لاستقلال ذاته واصراره على أن يأكل من عمـل يده وكان الى جوار ذلك تعويدا على الفضائل التى تعينه على حسن العبادة ومنها الصبر والأناة والرأفة ورعاية الضـعيف ، ومعنى ذلك أهمية رعى الغنم فى تسليح الانسان بقيم لابد منها فى سياسة الأمم)) .

وحينما يتحدث عن خلوة محمد صلى الله عليه وسلم بغار حراء يقول : كانت خلوته صلى الله عليه وسلم فى غار حراء طرفا من تدبير الله له وليعده لمـا ينتظره من الأمر العظيم ولابد لأى روح يراد لها أن تؤثر فى واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى لابد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت وانقطاع عن شواغل ارض وضجة الحياة .. وهكذا دبر الله لمحمد صلى الله عليه وسلم وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى وتغيير وجهة الأرض وتعديل خط التاريخ ، دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة كى ينطلق فى هذه العزلة مع روح الوجود ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون .. وعندما جاءه الوحى وهو فى غار حراء ولد الانسان فى هذه اللحظة وثبتت صلاحيته ليكون رسولا نبيا بعد ان ظن الجاهلون استحالة ذلك حين جردوا الانسان من صلاحية التلقى عن الله سبحـانه وجعلوا ذلك للملك دون الانسان .

وحينما يتحدث عن الهجرة النبوية نراه يقول : « ان غريزة حب الوطن من الغرائز الناشئة فى كيان الانسان واذا كان حب البقاء فطرة فى طبيعة الانسان فان حب الوطن أعمق جذورا وأوسع مدى . وكما قال القائل :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه
نازعتنى اليه فى الخلد نفسى

واذا كان للوطن بمفهومه القومى هذه المنزلة فان وطن الروح أعز وأغلى واذا اصطرعت فى النفوس محبة المكان ومسئولية الايمان فلا خيار للمسلم ولا مفر من ركوب الأهوال ومقارعة الرجال ولن يتردد أبدا فى هجرة وطنه انتصارا لمبادئه وحفاظا على دينه وايمانه » .

وهكذا كانت الهجرة امتحانا عسيرا لأقدار الرجال ، وترجمة عملية يتثبت فيها المسلم أنه نجح فى الاختبار العملى بعد نجاحه فى الاختبار النظرى لأن حب الوطن فطرة فى نفوس البشر . والذين ينتصرون على هذه الفطرة ايثارا لوطن الروح أن يبقى ويزدهر . أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى .

وقد أثبت المهاجرون الأولون أن الايمان الناضج يحول البشر الى خلائق تباهى الملائكة سناء ونضارة ، ولم تكن هجرة احدهم كانتقال موظف من بلد قريب الى بلد ناء بعيد ، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة الى أرض مخصبة ، ولكنها اكراه رجل آمن فى سربه ممتد الجذور فى مكانه على اهدار مصالحه والتضحية بأمواله والسير الى مستقبل مبهم لا يدرى ما يتمخض عنه من قلاقل

ومشاكل وهموم وأحزان . ولو كان الأمـر مغامرة فرد بنفسـه لقيل ((مغامر طياش فكيف وهو ينطلق فى أرض الله الواسعة يحمل أهله وولده وهو بذلك رضى الضمير مطمئن القلب بالايمان)) ؟

وهـكذا يمضى العالم الداعيـة فى خواطره وتأملاته مشرق الأسلوب دقيق التصوير أمينا فى النقل فهو اذ ينقل أحيـانا بعض الأفكار التى سبقه اليها بعض الباحثين يرد كل كلمة الى صاحبها مشيرا الى ذلك فى ذيول الصفحات .

وبعد فسوف تجد أيها القارىء الكريم فى ثنايا هذا الكتاب ان شاء الله ما يشفى صدرك ويسمو بروحك ويهيب بك الى أن نتمثل أمام عينيك وفى نفسك قول الحق سبحانه وتعالى :

((لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجـو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)) .

هـذا . ومن الله العـون وبه التوفيق .

الدكتور محمد الطيب النجار

المشرف العام على مركز السيرة والسنة

بين يدى السيرة النبوية
تمهيد ومقدمات

انتهت بحوث البصراء بطبيعة النفوس الى تلخيص عناصر العظمة فى امور اربعـــة :

١ ــ الأخـــلاق الرفيعة التى يتميز بها العظيم .

٢ ــ سمو المبادىء التى يدعو اليهـــا .

٣ ــ قدرته على التاثير وتكميل غيره بعد كمال نفسه .

٤ ــ نجاحه فى صياغة جيل يتمثل مبادئه .

ويتحمـــل الأمانة من بعـــده .

* * *

والمتأمل فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج بيقين جازم ان رسولنا الكريم ــ من خلال استقراء سيرته العطرة ــ قد استجمع هذه الخصائص جميعا . .

وعـــلى اوفى معانيها . .

لقد التقى فيه من خصائص القيادة كل ما تفرق فى نفوس العظماء من سمات ..

فاذا رحت تتأمل شخصيته الفذة بهرتك اضواؤها حتى لكأنك منها فى بستان مورق مثمر .. فيه من كل زوج بهيج .

واذا شهر زعيم أو قائد بمقدرة فائقة فى ناحية فانك تراه فى ناحية أخرى ساقطا فى القاع ..

وهذا نابليون .. الذى ذاعت بطولته .. ونسجت حولها الأساطير (لقد أكره أمة كاملة بحكومتها ووجوه شعبها على أن يكونوا « قوادين » له . يوصلونه الى الفتاة البولونية التى أحب.

وزاد على ذلك فاضطر اباها على أن يلزمها الاثم الذى أراده منها . وجعل استقلال « بولونيا » رهنا بتحقيق هذه الرغبة النجسة الفاجرة)(١) .

من اجل ذلك .. كان من الظلم لمحمد صلى الله عليه وسلم أن نقيسه بواحد من هؤلاء العظماء ..

ولقد حاول كتاب مخلصون أن يرفعوا محمدا الى السموات العلا فقالوا :

هو عبقرى ..

أو بطل الأبطال ..

---

(١) تعريف عام بدين الاسلام للشيخ على الطنطاوى .

ولكن قصارى هذا الوصف كما أشار بعض الباحثين أنه واحد من افراد قلائل ..

وربما كان ذلك مندوحة الى التشكيك فى تفرد رسالته بالهيمنة مادام هناك مثله عباقرة .. وابطال .. لهم مذاهب . ولهم مبادىء وهيهات :

اذا كان انل الواد يجمع بيننا
فغير خفى شيحه من خزامه !

والحق أنه : سماء .. ما طاولتها سماء :

(فان من العظماء من كان عظيم العقل . ولكنه فقير فى العاطفة . وفى البيان . ومن كان بليغ القول وثاب الخيال . ولكنه عادى الفكر . ومن برع فى الادارة او القيادة ولكن سيرته وأخلاقه كانت اخلاق الفجار ومحمد صلى الله عليه وسلم هو وحده الذى جمع العظمة من اطرافها) .

ولا شك أن محمدا (ليس قصة تتلى فى يوم ميلاده كما يفعل الناس الآن . ولا التنويه به يكون فى الصلوات المخترعة التى قد تضم الى ألفاظ الأذان .

ولا اكنان حبه يكون بتأليف مدائح . أو صياغة نعوت مستغربة يتلوها العاشقون . ويتأوهون . أو لا يتأوهون . فرباط المسلم برسوله الكريم اقوى واعمق من هذه الروابط الملفقة المكذوبة على الدين .

وما جنح المسلمون الى هذه التعابير — فى الابانة عن تعلقهم

بنبيهم ــ الا يوم أن تركوا اللباب الملىء وأعياهم حمله . فاكتفوا بالمظاهر والأشكال .

ولمـــا كانت هذه المظاهر والأشكال محدودة فى الاســـلام فقد افتتنوا فى اختلاق صور أخرى . ولا عليهم .. فهى لن تكلفهم جهدا ينكصـــون عنه .

ان الجهد الذى يتطلب العزمات هو الاستمساك باللبـــاب المهجـــور . والعودة الى جوهر الدين ذاته :

فخير من الاستماع الى قصة المولد يتلوها صوت رخيم أن ينهض المرء الى تقويم نفســه . واصلاح شأنه حتى يكون قريبا من سنن محمد صلى الله عليه وسلم : فى معاشه ومعاده .. وحربه وسلمه . وعلمه وعمله . وعاداته وعباداته .

ان المسلم الذى لا يعيش الرسول فى ضميره .. ولا تتبعـــه بصيرته فى عمله وتفكيره . لا يغنى عنه أبدا أن يحرك لسانه بألف صلاة فى اليوم والليلة وانما هى :

مصدر الأسوة الحسنة التى يقتفيها . ومنبع الشريعة العظيمة التى يدين بهـــا .

فأى حيف فى عرض هــــذه السيرة . وأى خلط فى سرد أحداثها اساءة بالغة الى حقيقة الايمان نفسه(٢) .

* * *

---

(٢) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى ٤/٥ .

لقـــد نجانا الحـــق سبحانه مما وقع فيه أهل الأديان الذين صوروا أنبياء تماثيل .. وذلك بسننه صلى الله عليه وسلم التى تغنينا عن التمثيل .. لأننا بها نتمثله صلى الله عليه وسلم بـــكل اقواله وأعماله :

(أ) ففى رحابها كل التفاصيل كأنك تشاهده .
(ب) ثم أنها ميزان لسير الحياة والأحداث .
(جـ) وهى كذلك زاد من القوة يمنحنا القدرة على مواجهـــة الفساد بالاصلاح . والضعف بالقوة .

واذن .. فدراسة السنة دراسة الآملين العاملين حيـــاة للأمة . واستمرار لهـــا .

مراحـــل الســـيرة :

يقول ابن القيم :

العبد من حين استقرت قدمه فى هذه الدار . فهو مسافـــر فيها الى ربه .

ومدة سفره هى عمره الذى كتب له .
فالعمر هو مدة سفر الانسان فى هذه الدار الى ربه .
ثم جعلت الأيام والليالى مراحل سفره :

فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل . فلا يزال يطويها مرحـــلة بعـــد مرحلة . حتى ينتهى السفر .

والحديث عن السيرة النبوية يمر بمراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : هى مرحلة الاعداد الالهى . تمهيدا لنزول الرسالة .

المرحلة الثانية : من البعثة الى الهجرة .

المرحلة الثالثة : من الهجرة الى أن انتقل صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى .

مرحلة الاعداد :

الله أعلم .

حيث يجعل رسالته .

يقول الحق سبحانه :

○ ـــــــــــــــ ﴿ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (٣)

جاء فى سبب نزول الآية :

ان أبا جهل قال : زاحمنا بنى مناف فى الشرف . حتى اذا صرنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يوحى اليه . والله لا نرضى بربه الا أن يأتينا وحى كما يأتيه فنزلت **((الله أعلم حيث يجعل رسالته))** وهو رد عليهم (بأن النبوة ليست بالنسب والمال . وانما هى

(٣) سورة الأنعام آية ١٢٤

بفضائل نفسانية يخص الله سبحانه وتعالى بها من يشاء من عباده . فيجتبى لرسالته من علم أنه يصلح لها . وهو أعلم بالمكان الذى يضعها فيه(٤) .

وقد جعلها سبحانه حيث علم .

فاختار لها الزمان .

واختار لها المكان .

كما اختار لها سبحانه وتعالى الأمة التى سوف تتحمل مسئولياتها الكبار .

ثم اصطفى من هذه الأمة رجلا تجمع فيه كل ما تفردت به من صفاء الفطرة . وقوة الارادة . ونقاء الخلق .

* * *

الزمان المناسب :

أما مناسبة الزمان : فقد كان الأمر على ما يقول الحق سبحانه .

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾(٥)

---

(٤) البيضاوى .

(٥) سورة الروم آية ٤١

لقد طم الفساد — حينئذ وعم — حتى صار الخلق عن الحق فى فكر ذاهل . وشغل شاغل .

لقد انحلت عرى الشخصية الانسانية . وماتت عناصر القوة فيها . بل لم يعد الانسان حينئذ مستعدا ليعيش حياته حتى فى أدنى درجات السلم الاجتماعى .

كان الحاكم — فى الأمم الأجنبية — اذا احتجم . أو فصد له . أو تناول دواء .. كان ينادى فى الناس :

الا يمارس انسان من رجال البلاط .. أو سكان العاصمة عملا . ويكفون عن كل صناعة أو ممارسة نشاط . واذا عطس(٦) فلا يسوغ لأحد من رعاياه أن يدعو له(٧) .

فأنظر كيف يتوقف دولاب العمل من أجل وعكة تلم برجل يحاول أن يجعل من ذاته محورا يدور فى فلكه الكون !

واذن فقد كانت السلبية هى القاسم المشترك فى هذه الأمم الأجنبية :

(اعتادوا مجاراة الأوضاع ومسايرة الزمان :

لا يهيجهم ظلم . ولا يستهويهم حق . ولا تملكهم فكرة . أو دعوة تستحوذ عليهم استحوذا يتناسون فيه أنفسهم . ويجازفون فيه بحياتهم ولذاتهم(٨) .

---

(٦) عطس من باب ضرب وفى رواية من باب قتل . ومعطس وزان مجلس : الأنف .

(٧) عن السيرة النبوية للندوى ٤٨ : ٤٩

(٨) المرجع السابق ٤٧ .

البيئة المناسبة :

فى هذا الوقت بالذات يهىء الله تعالى الأمة العربية لتتحمل مسئولية الانقاذ .. انقاذ العالم بما حباها من خصائص صارت بها أسلحة القدر التى قوض بها بنيان الظلم . وأقام على سواعدها صرح العدل والنظام .

وبهذا كانت الجزيرة العربية خير مكان .. وكان العرب هم الصفوة الصالحين لعمارة الدنيا . واصلاح ما فسد منها .

* * *

الموقع الجغرافى :

لقد احتلت الجزيرة العربية على سطح الكرة الأرضية موقعا جغرافيـــا متميزا . يجعلها جديرة بأن تكون مركزا لدعـــوة تعم العالم . وتخاطب الأمم .

ومن هذا الموقع الفريد تصبح مركز الدائرة على مستوى العالم كله . ومن ثم يشع نورها فى كل زواياه ومساربه . يعينها على ذلك ما يتمتع به ذلك الموقع الوسط من بعد عن التأثر بأى من الحضارات أو الديانات المحيطة بها . فكان ذلك فضلا من الحق سبحانه وتعالى : لتمهيد جو الحياة . وصـــهر العوامل المقومة لابراز الحدث الجلل الذى يغير وجه التاريخ تغييرا أصيلا شاملا . وهذه مرحلة الاصطفاء لقنوات التجدد الانسانى من أعالى الذرى الى وادى الوجود الواقعى .

وهى أيضـــا مرحلـــة التربية والحضانة لمن سيحمل لواء الرسالة الخاتمة الخالدة . التى جاءت لتصحح اغاليط الحياة فى

نظامها الاجتماعى . ولتقيمه على دعـــائم التوحيد الخالص لله الخالق : وتجعل من هـــذا التوحيد ركيزة للقيم الخلقية . والفضائل الانسانية(٩) .

خصائص الأمة العربية حاملة الرسالة :

لخص الشيخ العلامة أبو الحسن الندوى خصائص العرب فيما يلى(١٠) :

١ ــ (اختار الله العرب . ليتلقوا هـــذه الدعوة اولا . ثم يبلغوها الى أبعد انحاء العالم .

لأن الواح قلوبهم كانت صافية . لم تكتب عليها كتابات دقيقة عميقة يصعب محوها وازالتها . شأن الروم . والفرس . واهل الهند الذين كانـــوا يتيهون ويزهون بعلومهم وآدابهم الراقية . ومدنياتهم الزاهية . وبفلسفاتهم الواسعة .

فكانت عندهم عقد نفسية وفكرية . لم يـــكن من السهل حلها .

أما العرب : فلم تكن على الواح قلوبهم الا كتابات بسيطة . خطتها يد الجهل والبداوة . ومن السهل الميسور محوها وغسلها . ورسم نقوش جديدة مكانها كانت الأمم المتمدنة أصـــحاب جهل مركب .. بينما كان العرب اصحاب جهل بسيط .

(٩) الشيخ محمد الصادق عرجون . محمد رسول الله ج ٢١/١

(١٠) راجع السيرة النبوية للندوى ٤٤ وما بعدها .

٢ ــ كانوا أصحاب فطر صافية . وارادة قوية لا تعرف الالتواء . اذا انكشف لهم الحق اعتنقوه والا حاربوه .

وهو ما عبر عنه سهيل بن عمرو فى صلح الحديبية .

(والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك(١١)) .

٣ ــ من خصائصهم : الصرامة والصراحة لا يخدعون أنفسهم ولا غيرهم . اعتادوا القول السديد . والعزم الأكيد .

٤ ــ كانوا بمعزل عن الترف وما يترتب عليه من فساد .

٥ ــ كانوا أصحاب صدق وأمانة وشجاعة .

٦ ــ امة حرة لم تخضع لأجنبى أبدا . نشأت وعلى هيامها الحرية . والمساواة وحب الطبيعة .

* * *

من اجل ذلك كان العرب على موعد مع القدر الذى اعدهم لقيادة الانسانية .

* * *

لقد دخل العرب بهذه الخصائص فى الاسلام فصقلها واطلقها فى الاتجاه الصحيح تنشىء حضارة جديدة .

---

(١١) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب الحديبية .

وقد كان (أغلى ما عندهم من هذه الأخـــلاق . واعظمها نفعا بعد الوفاء بالعهد هو : عزة النفس . والمضى فى العزائم . اذ لا يمكن قمع الشر والفســـاد . واقامة نظــام العدل والخير الا بهذه القوة القاهرة . وبهذا العزم الصحيح(١٢)) .

وبالله التوفيق

محمود محمد عمارة

---

(١٢) الرحيق المختوم . صفى الرحمن المباركفورى . ص ٥٤

محمد
صلى الله عليه وسلم

١- نسبه ٢- نشأته

٣- كيف أعده الله تعالى لحمل الرسالة

محمد
صلى الله عليه وسلم

١ـ نسبه

روى الترمذى :

انه صـــلى الله عليه وسلم قام على المنبر فقال :

من انا ؟

فقالوا انت رسول الله عليك السلام .

فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

ان الله خلق الخلق . ثم جمعهم فرقتين .. فجعلنى فى خيرهم فرقة . ثم جعلهم قبائل فجعلنى فى خيرهم قبيلة .

ثم جعلهم بيوتا فجعلنى فى خيرهم بيتا وخيرهم نفسا(١٣)) .

---

(١٣) الترمذى ٩/٢٣٦ كتاب المناقب .

انه خيار من خيار .

قال الله تعالى :

« الله أعلم حيث يجعل رسالته »

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان تلك الأسئلة عن صفاته عليه الصلاة والسلام .

قال : كيف نسبه فيكم ؟

قال : هو فينا ذو نسب .

قال : كذلك الرسل تبعث فى أنساب قومها . يعنى فى أكرمها أحسابا . وأكثرها قبيلة . صلوات الله عليهم جمعين .

فهو سيد ولد آدم وفخرهم فى الدنيا والآخرة . أبو القاسم . وأبو ابراهيم . محمد . وأحمد . والماحى الذى يمحى به الكفر . والعاقب الذى ما بعده نبى . وخاتم النبيين . والفاتح . وطه . ويس . وعبد الله(١٤)) .

* * *

خصائص البيت النبوى :

ولد صلى الله عليه وسلم فى بيت استجمع خـلال الخير والبر . ومع أن والده « عبد الله » توفى دون الثلاثين . الا أنه خلف من ورائه ذكرى طيبة بعد هـذا العمر القصير .

---

(١٤) البداية والنهاية ٢/٢٣٩

وقد نوهت بأخلاقه الطيبة زوجه «آمنة الأبيه الوفية حين رثته لـمـا بلغها نبأ وفاته :

عفـا جـانب البطحـاء من ابن هاشـم
وجـاور لحـدا خـارجا فى الغمـاغم

دعتـه المنـايا دعـوة فأجـابها
وما تركت فى النـاس مـثل ابن هاشم

عشـية راحـوا يحملـون سريره
تعـاوره أصـحابه فى التـزاحم

فـإن تـك غالتـه المـنايا وريبهـا
فقـد كان معطـاء كثـير التراحم(١٥)

* * *

ووفاء لذكرى زوجهـا الحبيب ذهبت لزيارته . قاطعة مع يتيمها وحاضنته خمسمائة كيلو مترا !

وهكذا تتحدد ملامح البيت النبوى .. وتتضح الأصـول الكريمة فيما كان يتمتع به أبوه من . كرم .. وتراحم .. وما اختصت به أمه من وفاء .. وإذا كان عبد الله قد خلف « خمسة أجمال . وقطعة غنم . وجارية حبشية اسمها « بركة » أم أيمن فقد أسعد الدنيا بمولود صار من بعد نور الحياة وروحها . ثروتها الغالية التى تباهى بها .

---

(١٥) طبقات ابن سعد ١/٦٢ ط الشعب .

٢ ـ نشأته

كانت عادة سكان الحضر أن يلتمسوا المراضع لأولادهم فى البادية . وقــد شاءت حكمته تعالى أن يسترضع صلى الله عليه وسلم فى « بنى سعد بن بكر » .

وكانت لها شهرة فى المراضع . وفى الفصاحة .
الى جانب ما يحققه الفضاء المتراحب من :

(أ) اكتساب ما فى أخـــلاق البادية من سلامة واعتدال .
(ب) البعد عن أمراض الحواضر .
(ج) التمتع بالهواء الطلق .

وبذلك :

١ ــ يقوى الجسم .
٢ ــ تشتد الأعصاب .
٣ ــ تصح الألسنة .

ولهذا ــ كما يقول الشيخ محمد الغزالى تنمو الشخصية . وتتزود بالأخـــلاق الطيبة رويدا .

* * *

وقد صاحبته العناية الالهية منذ لحظة ميلاده .

هذا الميـــلاد الذى كان بشارة تومىء الى أن بعثا جديدا قد طلع فجره .

لقد ولدته أمه فى يسر وسهولة .. وضيئا .. نظيفا .. وضاح المحيا .

حلو القسمات .. فكان ذلك ارهاصا بما سوف تكون عليه الحياة فى ظله من جمال .

ثم اقترن هـذا المولد منذ لحظته الأولى بمعنى الحرية التى جاء ليتوج بها رأس الانسان المسير المستعبد .

فكان ذلك بشارة بما سـوف تبلغه الانسانية على يديه من كمال :

يروى ان عمه ابا لهب .. لمـا بشرته مولاته ثوبيه بولادة النبى صـلى الله عليه وسلم .. استخفه الفرح .. فأعتقها .

***

حادثة شق الصدر :

جرت سنة الله مع انبيائه أن يكرمهم بالمعجزات الخارقة قبل أن يبعثهم للناس حتى تتهيأ العقول بعد ذلك لقبول دعوتهم .

وتذكر الروايات التاريخية عن محمد وهو فى الثالثة من عمره انه كان مع أخيه من الرضاع خلف بيوتهم فعاد أخوه الطفل السعدى يقول لأمه وأبيه : ذلك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهمـا يسوطانه (أى يقلبانه) تقول السيدة حليمة : « فخرجت أنا وأبوه فوجدناه قائما ممتقعا وجهه فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له : مالك يا بنى ؟ قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضـجعانى فشـقا بطنى فالتمسا فيه شيئا لم أدر ما هو ؟

وقد خشيت السيدة حليمة على محمد أن يكون قد أصابه شيء فأرجعته الى أمه آمنة فى مكة وقصت عليها النبأ العجيب فطمأنتها آمنة قائلة : ان لابنى هذا لشأنا فلم أكن أحس أثناء حمله بشيء مما تجده الحوامل . وقد رأيت وأنا أحمله كأن نورا خرج منى فأضاء لى قصور الشام . ثم طلبت اليها أن تعود به الى بادية بنى سعد مرة ثانية فعادت به حليمة وظل معها حتى قارب الخامسة من عمره .

وشق صدره بصورة حسية رمز يبقى فى أذهان الناس دليلا على أنه نبى هذه الأمة ولم يكن المقصود به تجريده كلية من دوافع البشر .. وانما كان فرارا به من وساوس الشيطان حتى لا تعوقه عن الوصول الى الكمال .

وليكون جهاده — كما قيل — من بعد فى الترقى الى أعلى . بدل أن يبذل طاقته فى مقاومة التدلى .

وليستطيع وقد طهرت نفسه أن يطهر غيره .

ويوضح هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم :

(ما منكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن . وقرينه من الملائكة .

قالوا : واياك يا رسول الله ؟ قال : واياى . الا أن الله أعاننى عليه فأسلم . فلا يأمرنى الا بخير(١٦)) .

أى انقاد لى وأذعن فصار لا يهجس بشر .

---

(١٦) مسلم ١٣٩/٨

بشر من البشر :

ومعنى ذلك أنه ظل بشرا من البشر . فيه ما فيهم من غرائز ودوافع . ولكن عناية الله تحرسه فلا تزل قدمه أبدا .. واذا ما اقترب منه الشيطان فسوف يخنس راجعا .. وهو حسير . على ما يقول سبحانه وتعالى :

○ ــــــــــــــــ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾ (١٧)

واذا كان شأن المتقين مع الشيطان أنه لا يأخذ منهم الا كما تأخذ النسمة من الطود الأشم .. فكيف يكون الحال مع امام المتقين صلى الله عليه وسلم ؟

انه بشر . يهم كما يهم غيره . منبعثا الى التمتع بلذاذات الدنيا .. لكن الهداية الالهية تقطع عليه الطريق ليظل فى مكانه الرفيع .

قال صلى الله عليه وسلم :

(ما هممت بشىء مما كانوا فى الجاهلية يعملونه غير مرتين : كل ذلك يحول الله بينى وبينه .

ثم ما هممت به حتى أكرمنى الله بالرسالة .

---

(١٧) سورة الأعراف آية ٢٠١

قلت يوما للغلام الذى يرعى معى باعلى مكة :

لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة . وأسمر كما يسمر الشباب .

فقال : افعل

فخرجت . حتى اذا كنت عند أول دار بمكة . سمعت عزفا .

فقلت :

ما هذا ؟

فقالوا : عرس .

فجلست أسمع .

فضرب الله على أذنى . فنمت . فما أيقظنى الا حر الشمس .

فعدت الى صاحبى فسألنى . فأخبرته .

ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك .

ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة .

ثم ما هممت بعده بسوء(١٨) .

❋ ❋ ❋

انه غلام كسائر الغلمان تحن نفسه الى سماع ما يشتهون من الغناء . ورؤية ما يؤثرون من السمر .

---

(١٨) رواه ابن الأثير والحاكم عن على بن ابى طالب وقال صحيح على شرط مسلم .

لكن رحمة الله تعالى سبقته الى هناك .. فكان سلطان النوم .. رسول هذه الرحمة : لقد ضرب الله على أذنه فلم يسترسل فى السماع الى ان ايقظته الشمس .

* * *

ونلاحظ من اخلاق زملاء المهنة تلك السماحة من زميله الذى ناب عنه فى الحراسة طول الليل .. ولم يتبرم .

ثم لما استأذن منه ليلة اخرى .. ايضا ما تبرم .. ولم يقترح أن تكون نوبته فى السماع تلك الليلة مثله من قبل .

ومع ما يسجله الموقف من تعاون وتجاوز بين الخلطاء الذين يستنزلون البركة بهذه السماحة .. الا أن الموقف كان اكبر من ذلك :

كان اعدادا الهيا لمحمد صلى الله عليه وسلم وبصورة عملية قبل ان تتحول حياته الى مراحل جهاد ومعاناة .. تشرق الفضائل فى نفسه وفى بواكير حياته كما يشرق ضوء الشمس فى الصباح .. ثم يكون بعد ذلك قرصا وهاجا مكتملا يملأ الدنيا بالنور والخير .

محمد على الفطرة :

كان شيئا طبيعيا ان تتحرك رغبة صبى الى مثل ما يلهو به الصبيان .

أما بالنسبة للأصنام فلم تحدثه نفسه بالمثول أمامها .. بل كان يكره سماع الحلف باللات والعزى .

وذات يوم .. وقع تحت تأثير ضاغط ليحضر عيدا من أعياد الأصنام .

ولقد قاوم أهله جميعا .

ولما وافقهم على حضور العيد .. كان حضـوره درسا الهيا كشف الى اى مدى كان محمد على الفطرة :

روى ابن سعد فى الطبقات عن ابن عباس :

حدثتنى أم أيمن قالت :

كانت « بوانة » صنما تحضره قريش تعظمه .

تنسك له النسائك(١٩) — أى تذبح له الذبائح .

ويحلقون رءوسهم عنده يوما . الى الليل وكان ذلك يوما فى السنة . وكان أبو طالب يحضر هـذا اليوم مع قومه . وكان يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم . أن يحضر ذلك العيد مع قومه . فيأبى حتى رايت أبا طالب غضب عليه . ورأيت عمّاته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب وجعلن يقلن : ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيدا ولا تكثر لهم جمعا . قالت أم أيمن : فلم

---

(١٩) نسك . من باب ، قتل . والمنسك بفتح السين وكسرها : المكان أو الزمان الذى تذبح فيه النسيكة وهى الذبيحة . ومناسك الحج : عباداته . ومعنى تنسك النسائك . تذبح الذبائح .

يزالوا به حتى ذهب . فغاب عنهم ما شاء الله . ثم رجع الينا مرعوبا فزعا . فقال له عماته : ما دهاك ؟ قال : انى اخشى ان يكون بى لم — فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان . وفيك من خصال الخير ما فيك. .فما الذى رايت ؟

قال : رايت كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل ابيض طويل يصيح بى وراءك يا محمد .. لا تمســـه . قالت ام ايمن : فما عاد الى عيد لهم حتى تنبأ .

وتأمل كيف يواجه الصبى الصغير مختلف الضغوط كى يحضر مع قومه هذا الحفل العابث .

فعمه ابو طالب يلح عليه ليذهب معهم .

ثم يغضب عليه حين يرفض مشاركتهم .

وأيضا : فعماته يهددنه بما يمكن ان يلحقه من اذى الآلهة التى لا يعظمها مثلهم .. ويحاول دائما تجنبها .

ثم يلمحن له غاضبات بعدم اكتراثه لهم جميعا . وما ينطوى عليه من اهانة لا تحتمل السكوت .

ويذعن الصـــبى الصـــغير .. مجاملة .. وامام الالحاح الموصول .

وكان الحق تعالى يدبر له . فأراه ما أراه .. ولم يقدر له ان يشـاركهم فيما يفعلون من مجون .

وخرج بعون الله أكبر اصرارا على موقفه الرافض لهذا العبث.

وانحسرت البيئة كلها .. بكل ضغوطها .. معلنة افلاسها إزاء الارادة العنيدة التي فرضت على البيئة احترامها .

ولقد كان الصبي هنا عودا طريا .. مال مع الريح مكرها .. وحقق املهم مبدئيا بذهابه فى صحبتهم ولكن العود لم ينكسر .. وخرج من التجربة اشد تحررا من ضغط المجتمع .. واكبر استعلاء ونفورا من تقاليده .

ولا بأس احيانا من المرونة معايشة لمجتمع اكثر جمعا واقوى عدة .. بعدما يعلن المحق مبداه .. ويظهر مدى اصراره عليه . والا .. فان الموقف المتحدى السافر .. منذ اللحظة الأولى .. ربما يؤلب عليه الجميع .. وتضيع فرص التفاهم .. بقدر ما تسفر المرونة فى النهاية عن انتصار الحق .. الذى بدأ جولته من الصفر .. متدرجا بالحكمة .. الى أن يجيئه نصر الله والفتح .

ونتساءل اخيرا :

ما هى الأسباب التى جاء بها نصر الله والفتح ؟ .

١ — انها كما قلنا مرونة ومجاملة للمجتمع — لا على حساب العقيدة طبعا — بمعنى انها خطوة الى الوراء يخطوها الداعية .. حتى اذا قفز من بعد .. كانت القفزة محكمة .

٢ — ثم ألم تر الى قول عماته له لما جاء فزعا :

(وما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك) ؟

اى انه يواجـــه المجتمع لا بالكلام المعسول .. او الشعار الصاخب .. ولا بالسلاح يفرق به الجماعة ..

وانما .. كان له ماض مشرف .. وهو رصيده الذى يؤيده فى موقفه ويفرض على الآخرين احترامه :

اى ان مواقفه المشرفة .. واعماله الصالحة تشـــكل كل واحدة منها جنديا يقف الى جانبه .. وهذا ما شهدت به عماته .. بل شهد به أعداؤه جميعا .

ان الاصرار على الحق له ثمنه المدفوع مقدما :

نفس متفتحة مقبلة على الحياة والأحياء ..

على ان يكون النشاط الاجتماعى ترجمة هذا الوجدان الصافى.

ولا بأس من مشاركة المجتمع فى بعض مظاهره .. كمرحـــلة أولية ينغمس بها الداعية فى مشكلات أمته .. ليتمكن من الرؤية الكاشفة لعيوب هذا المجتمع .. ثم معالجتها عمليا .. وعلى مرأى ومسمع منه ..

ان الخطبة البليغة من فوق المنبر العالى .. لها اثرهـــا ولا شك .. فاذا أضيفت اليها الحركة العملية البانية الهادية .. كان ذلك خيرا للدين وللمجتمع .

* * *

طفولة على مستوى الرجولة :

اذا حرم الطفل حظه من الحنان افقده الحرمان القدرة علـى التعامل مع الناس بنجاح .. مدفوعا بقسوة يجدها فى قلبه حـين لم تسمع اذنه كلمة ندية . ولم تمسح راسه يد حانية .

فاذا كان هذا الطفل يتيما .. فان الخافق المعذب فى صدره سيتحول سوط عذاب يصبه على مجتمع قسا عليه .. فلم يعنـه علـى بره .

* * *

وحـين يأخذ هذا الطفل نصيبه الأوفى من الرعاية .. فان مواهبه تتفتح كأكمام الزهر .. لتنشر العطر فى كل اتجاه .

واذا اتيح له ان يمارس حظه من اللعب البرىء .. المحروس بالقيم العليا .. فانه يستوفى عناصر الرجولة التى ترشحه لهـا حين تخطو به اليها .. بعطفنا .. وتقديرنا لمكاناته .

ولقد لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من رعاية عمـه أبى طالب .. ونال فى ظله من التقدير ما أوفى به على الغاية :

(لمـا توفى عبد المطلب ضم أبو طالب النبى صلى الله عليه وسلم اليه : وحاطه اتم حياطة . ورق عليـه . واحبه حبا شديدا . لا يحبه ولده .

وكان لا ينام الا الى جنبه . ويخرج فيخرج معه .

وصب به أبو طالب صبابه لم يصب مثلها بشىء قط .

وقــد كان يخصه بالطعام .

وكان ابو طالب لا مال له .. الا قليلا .

وكان يقرب الى أولاده تصبيحهم ــ فطورهم ــ اول البكرة . فيجلسون وينتهبون ــ الأكل ــ ويكف رسول الله صلى الله عليه وسلم يده لا ينتهب معهم .

فلما رأى ابو طالب عزل له طعامه على حده .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يصبح فى اكثر أيامه فياتى زمزم فيشرب منها شربة . فربما عرض عليه الغداء فيقول :

لا اريده .. انا شبعان .

وكان ابو طالب اذا اراد ان يغديهم او يعشيهم يقول :

كما أنتم حتى يحضر ابنى . فيأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم فيفضلون من طعامهم .

وان كان لبنا شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم اولهم . ثم يتناول العيال القعب ــ الاناء ــ يشربون منه . فــيروون عن آخرهم من القعب الواحد ــ وان كان أحدهم ليشرب قعبا وحده ــ فيقول ابو طالب . انك لمبارك .

وكان اولاد ابى طالب يصبحون رمصا ــ اى جمدا لوســخ فى أعينهم ــ غمصا عمشا ــ يسيل دمع عيونهم ــ

شعثا ــ تلبد شعرهم فهو وسخ لقلة تعهده بالدهن ــ

ويصبح محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم صقيــلا .

دهينا . كحيلا . وكان ابو طالب له وسادة يقعد عليها . فجاء النبى صلى الله عليه وسلم يوما فقعد عليها .

فقال ابو طالب : والذى يعبد ان ابنى ليحس بنعيم(٢٠)) .

* * *

فأنت ترى اليتيم هنا يعيش بين رحماء ..

بل ويؤثره الوالد على بنيه من صلبه ايثارا ظهرت اماراته فى :

نومه الى جانبه .

صحبته له فى سفره .

وايثاره له بالطعام . وبالاكرام .

ومن شأن هذه الرعاية أن تفسح الطريق أمام مواهب اليتيم الذى آواه الله تعالى فى هذا البيت .. لتستوى على سوقها . ثم لتمد الحياة من بعد باطيب الثمرات .

ولكن .. !

ولكن هذا التقدير لم يكن اعتباطا .. فقد إستحقه الصبي عن جدارة بهذه الخصائص التى زاحم بها الرجال .

انه يستقبل حياته . مشرق الوجه .. باسم الثغر ..

وبينما يستقبل رفاقه الصباح كسالى .. يقبل عليه هو راضيا .. متفائلا .. نشطا .

---

(٢٠) اتحاف الورى ج ١٠١/١ وما بعدها .

بهذه الطهارة التي تحيي فيه بواعث العمل .

ثم .... هو لا يسابق الصغار الى الطعام .. ولا ينتهبه انتهابا .. وهو بهذا الحس الاجتماعى النظيف يدرك أن له اخوة فى البيت .. فليس الطعام له وحده ..

ثم انه انسان .. تمسكه انسانيته أن يشارك الحيوان فى واحدة من خصائص الحيوان !

وقد يبكر ذاهبا الى زمزم ليشرب منها شربة تغنيه عن الطعام غناء شاهدا بأن له آمالا كبارا تغنيه عن الاسراف فيه أو جعله همه الأول !

وقد تنبأ له عمه بالسيادة والقيادة حين ناب عنه يوما وجلس على وسادته الخاصة ..

انه اذن صبى .. ولكنه سوى .. استحق بهذه الخاصية ان ياخذ سبيله القاصد الى ذروة الكمال .

لكنه لا ياخذ هذا السبيل اعتباطا :

وانما هناك رعاية من عمه .. ومن اهله ..

وما أكثر الايتام بيننا اليوم .. والذين يحملون فى قلوبهم عواطف نبيلة .. وفى عقولهم افكارا ذكية ..

لكنهم فقط فى حاجة الى اليد الحانية .. والكلمة الهادية ..

القادرة على استخراج ما فى انفسهم من كنوز يمكن ان تكون للحق عونا .. وللمجتمع رخاء .

* * *

ولو ترك اليتيم هكذا مدحورا مخذولا .. فسوف يمتد الاحساس بالغربة ليشمل مساحة القلب كلها ..

ومع الايام .. سوف يصفى حسابه مع مجتمع لم يدخله فى حسابه يوما .. ان الاحساس بالغربة يقتل مواهب الصغير المتفتح للحياة .. بل انه لينحسر بقوى الرجال .. فيحبط مفعولها .. وكيف يتحمل الكيان الانسانى ذلك الحرمان .. بينما الغافلون يتقاسمون النعيم .. على ما يقول أحدهم .

ان عيبا على ديار المشارق أن أرحل عنها إلى ديار المغارب

وغريب يعيش فيها غريبا .. بعد ما أتى قومه بالغراب

ويقاسى الظمأ حيال اناس ـ قد تقاسموا بينهم مياه السحائب

الصبى يلعب .. ولا يلهو :

وبهذه الشخصية المتفتحة النظيفة .. نزل الصبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ساحة اللعب مع رفاقه !

لكن لعبه .. كطعامه محكوم منذ نشاته الأولى بقيم الايمان :

* * *

لقد مارس محمد حياته الأولى كأى صبى مقبل علـى الحياة شاعر بما فيها من جمال معروض .. يستجيب له .. ويستمتع به .. فى حـدود العقل والاعتدال قال صلى الله عليه وسلم :

حاكيا بعض ذكرياته :

(واحسنت العوم فى بئر بنى عدى بن النجار)

***

ثم يقول صلى الله عليه وسلم :

(لقد رايتنى فى غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان .

كلنا قد تعرى واخذ ازاره . وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة .

فانى لأقبل معهم كذلك وادبر . اذا لكمنى لاكم لا أراه لكمة وجيعـة ..

ثم قال :

شد عليك ازارك . فأخذته فشددته على .

ثم جعلت احمل الحجارة على رقبتى . وازارى على . من بين أصحابى) فأنت ترى صبيا فتيا . تربطه مشاعر الانتماء برفاقه فيلعب كما يلعبون .. حتى اذا اوشك اللعب إن يدخل فى نطـاق اللهو. جاءه النذير الذى لكمه لكمة مؤلمة حتى يسبل أزاره .

اى أنه يمارس اللعب المباح مع أقرانه .. لكنه لا يسمح للأمر الواقع أن يفرض عليه لون الحياة الجارية .

ان سياسة الأمر الواقع لا تشكل حياته . ولكن ولاءه ابتداء للقيم . الصادقة . التى عليه أن يلتزم بها اولا .

* * *

ولاحظ أن اللكمة كانت وجيعة .. لان الخطأ الواقع ايضا وجيع !

فهو محمد الذى سوف يكون رسولا .. وجدير بمثله ان ينشأ على الطهر والنقاء .

ولا يخفى ما فى الموقف من درس مهم :

ان صاحب اللكمة لم يأمره باعتزال الملعب !

وظل محمد ماضيا فى صحبة رفاقه ، الا أنه كان مستورا ..

ولو أنه اعتزل لما تحقق الا فائدة جزئية ناشئة عن غيابه وعدم مشاركته اياهم فى امر لا يليق .

لكن بقاءه يلعب معهم مستورا كان مثلا حيا متحركا يترك أثره المكرور بلا شك على رفاقه جميعا .

* * *

وقد نرى اليوم ساحات اللعب المباح وقد خلت من شباب مخلص حسب أن تمام اسلامه بالهروب منها .

فبدا شاحب اللون ، ضعيف الجسم ، لا يصبر على عمل جاد .. بينما اللاعبون اللاهون قد استأثروا دونه بالعافية !

ولو انهم نزلوا الى الساحة فمارسوا الرياضة الحلال .. محتفظين لحظة اللعب بقيم الرجولة لأفادوا ، وعادت الفائدة على أمتهم انتاجا وفيرا ، وخيرا كثيرا ، واذا كنا نناشد الشباب أن يعطوا اجسامهم حقها فى الترفيه .. فاننا نهيب بالدولة أن تمهد لهم السبيل .

* * *

بوادر النشاط العملى :

كان لمحمد الصبى فى صباه نشاط وتقلب فى البلاد . الى جانب اسهامه قضايا مجتمعه .. وما ترتب على ذلك من اعداد ليحمل هموم البشرية من بعد .

سياحته فى البلاد :

لما بلغ سنه اثنتى عشرة سنة . تهيأ عمه ابو طالب للسفر الى الشام .

وصب — اى مال — محمد له . فأخذ بزمام ناقته وقال .. : يا عم : الى من تكلنى ؟ لا اب لى . ولا ام لى .

فرق أبو طالب . وقرر الا يفارقه .

فبلغ به « تيماء » او « بصرى » من أرض الشام .

وتقول كتب السيرة انه مر فى الطريق بأكثر من راهب — ومنهم بحيرا — فبشروه جميعا بأنه سيكون نبيا . ثم حذروه من اليهود الذين قد يمكرون به ليقتلوه .

وفى رواية (قال ابو طالب بعد هذه البشارة :

يابن اخى : الا تسمع ما يقولون ؟ !

قال : يا عم .. لا تنكر لله قدره(٢١) !

***

ولا شك أن ذكاء الصبى حينئذ محسوب .. هـذا الذكاء الذى ادرك مغزى هـذه البشارة .. وانشأ عنـده أحساسا غامضا بمستقبل غير عادى .. وعلى غير ما ألف الناس من حوله . وانك لتدرك كيف واجه الصبى منطق عمه المـادى :

لقد استنكر عمه المحكوم بالواقع المادى أن يكون ذلك الصبى الصغير نبيا .. ويجيئه الجواب منه صلى الله عليه وسلم صادرا عن فطرة سليمة حساسة .. شاهدة بأن ذلك ممكن فى اطار قدرة الله تعالى التى لا يعجزها شىء . مسجلا فى نفس الوقت غربة محمد الصبى فى قومه وان كان يعيش معهم .. على أرضهم وتحت سمائهم .

***

---

(٢١) من حديث ابن سعد عن طريق محمد بن عقيل .

محمد بين حرب الفجار وحلف الفضول :

وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره . هاجت حرب الفجار بين قريش وقيس عيلان — وقد سميت بذلك لكثرة ما انتهك فيها من المحارم الى حد الفجور .

وقد شهد الرسول بعض ايامهم . لما اخرجه اعمامه معهم .

وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم :

كنت انبل(٢٢) على اعمامى . اى : ارد عليهم نبل عدوهم اذا رموا بها(٢٣) .

* * *

اما حلف الفضول :

فقد كان من شأنه (أن تداعت قبائل من قريش . فاجتمعوا فى دار عبد الله بن جدعان . لشرفه وسنه ،

وصنع لهم يومئذ طعاما كثيرا . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ معهم .

فاجتمعت بنو هاشم وأسد . وزهرة وتيم .

وتعاقدوا وتحالفوا بينهم بالله :

لا يظلم احد بمكة : غريب ولا قريب . ولا حر ولا عبد . الا كنا جميعا مع المظلوم على الظالم . حتى نأخذ له حقه . ونرد اليه مظلمته ممن ظلمه : شريفا او وضيعا .. منا او من غيرنا .

---

(٢٢) وفى رواية انبل .
(٢٣) سيرة ابن هشام .

وفى ذلك يقول الزبير :

ان الفضـــول تحـــالفوا وتعـــاقدوا
الا يقيـــم ببطن مـــكة ظـــالم

امـــر عليـــه تعاهـــدوا وتواثقـــوا
فالجـــار والمعتـــر منهـــم ســـالم

* * *

وفى بيان قيمة الحلف روت عائشة رضى الله عنها قالت :

سمعت رسول الله صـــلى الله عليه وسلم يقول :

لقد شهدت فى دار « عبد الله بن جدعان » حلف الفضول .
ما لو دعيت اليه اليوم لأجبت . وما احب ان لى به حمر النعم(٢٤) .

اجل لم تكن استجابته صلى الله عليه وسلم واحـــدة ..
فى الموقفين :

ففيما يتعلق بحرب الفجار :
فقد كانت ضـــد طبيعته الانسانية المسالمة .

ولكن ما الحيلة وقـــد اخرجه اعمامه اخراجا . ولم يكن
فى الموقف الذى يتيح له الرفض .

.. وها هو ذا صـــلى الله عليه وسلم يؤدى دوره .

فيحمل النبل الى أعمامه مرة ..

---

(٢٤) شفاء الغرام ٢/١٠٠

ثم يباشر الرمى بنفسه أخرى .

لكنه فى الحالين لم يكن مطمئنا الى ما يفعل .

ولقد سجل بهذا التعليق الشريف ندمه .. وكم كان يود ان لم يكن له فى هـذه الحرب وجود .

* * *

اما بالنسبة لحلف الفضـول :

فقد كان سعيدا أن شارك فيه .

ذلك بأن أهداف الحلف الاصلاحية تنسجم مع نفسه المطبوعة على الخير .. وتتفق مع منهجه فى اقرار العدل . وحقن الدماء . والوقوف الى جانب المظلوم .

ومن ثم يذكر حلف الفضـول بمشاعر الاعتزاز والتقدير .

مفضلا اياه على اغلى ما فى الحياة وهو :

حمر النعم .. اعلاها قيمـة .. واغلاها ثمنا .

لقد كان صلى الله عليه وسلم رؤفا رحيما بالمؤمنين .. بل كان رحمة للعالمين . ومن ثم .. فقـد كان عزيزا عليه أن تراق دماء الانسان حيثما كان .. فكان نبى الاسلام .. والسلام .. معبرا بهذه النزعة الانسانية الرحبة عن اهليته صـلى الله عليه وسلم وحده لانقاذ العالم المحروب .

والأمر على ما قيل بحق :

(ان بريق الفرح بهذا الحلف يظهر فى ثنايا الكلمات التى عبر بها رسول الله عنه :

فان الحمية ضد اى ظالم مهما عز .

ومع اى مظلوم مهما هان .

هى روح الاسلام الآمر بالمعروف . الناهى عن المنكر . والواقف عند حدود الله .

ووظيفة الاسلام أن يحارب البغى فى سياسات الامم .

وفى صلات الأفراد على سواء(٢٥)) .

وليت العرب اليوم يفيقون على صوت الذكرى يناديهم .. ويبين لهم ما فى ضمير أمتهم من نجدة .. تنصر المظلوم .. وشجاعة تأخذ على يد الظالم .. وحفاظ على الدماء العربية ان تسيل وبيد عربية .. لا غربية .

* * *

من رعى الغنم الى قيادة الأمم :

قال ابن اسحاق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

ما من نبى الا وقد رعى الغنم .

---

(٢٥) فقه السيرة للغزالى /٧٥

قيل : وانت يارسول الله ؟ قال : وانا .

قال السهيلى بعد ذكر صحاح الأحاديث التى ثبت فيها أنه صلى الله عليه وسلم رعى الغنم .

وانما جعل الله هذا فى الأنبياء تقدمة لهم : ليكونوا رعاة الخلق . ولتكون أممهم رعايا لهم(٢٦) .

***

وقد ثبت فى الصحاح انه كان يرعى الغنم فى مكة على قراريط يأخذها من اهلها .

وقد قيل فى معنى القراريط : انها جمع قيراط . وهو جزء من الدرهم أو الدينار .

وعلى ذلك فمعنى الحديث : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرعى الغنم على الأجرة .

وقيل انه اسم مكان بمكة المكرمه .

وعلى كل . فرعى الغنم كما قيل :

كسب شريف . وتربية نفسية . وترويض على العطف على الضعفاء . واستنشاق للهواء النقى الصافى . وتقوية للجسم .

وفوق ذلك كله فهو : اتباع لسنة الأنبياء(٢٧) .

---

(٢٦) ابن هشام ح ١٧٨/١ ط. الجمهورية .
(٢٧) السيرة النبوية للندوى/١٢٣

ولقد أتاح رعى الغنم للرسول فرصة ذهبية اكتملت فيها ملكاته النفسية وقواه الجسدية والعضلية مع الغنم .. والصحراء .. والفضاء .

وكان ذلك تأكيدا لاستقلال ذاته .. واصراره على ان يأكل من عمل يده .

واذا كان عمه ابو طالب قد فعل افضل ما يليق به حين تكفل بمعاشه .. فقد كان رد الفعل عند محمد ان يفعل ايضا افضل ما يليق به وهو ان يعمل . لينفع نفسه وغيره .

وتلك سنة عملية من سننه نهيب بشباب اليوم ان يعوها .. لتأخذ مكانها فى طليعة السنن الشريفة .

* * *

فلما استقرت حياته فى الصحراء راعيا حقق له ذلك العمل :

١ — فى الصحراء هدوء ينسجم مع نفسه التى تعشق السلام .

٢ — وفيها الاستمتاع بجمال الطبيعة البكر والذى لم تفسده يد الانسان .

٣ — ثم انها فرصة يتأمل فيها الراعى ملكوت الله تعالى فى الليل اذا سجى . والنهار اذا تجلى .

٤ — وقد أتاح رعى الغنم لرسول الله صلى الله عليه وسلم خبرة زراعية :

روى ان بعض اصحابه مر عليه بثمر الاراك فقال لهم :

عليكم بما اسود منه . فانى كنت اجتنيه اذا انا راعى غنم .

وفى رواية : فانه اطيبه .

٥ — على ان فى رعى الغنم اخذا للنفس بما لابد منه من فضائل تعين على حسن القيادة :

ومنها : الصبر . والاناة . والرافة . ورعاية الضعيف :

ويعنى ذلك اهمية سياسة الغنم فى تسليح الانسان بقيم لابد منها فى سياسة الامم .

ولا باس ان ياخذ اجرا على الرعى .. فهو عمل شريف .. وما اكثر المسلمين الذين يستنكفون اليوم أن يباشروا عملا من هذا النوع بحجة ان ذلك يخدش كرامتهم .

وفى نفس الوقت يباشرون من الأعمال ما يناقض سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . استرضاء لبيئة جذبتهم فاستعبدتهم .

* * *

التاجر الامين :

فى السنة الخامسة والعشرين من مولد محمد صلى الله عليه وسلم .

(قال ابو طالب لابن اخيه النبي صلى الله عليه وسلم(٢٨)) .

---

(٢٨) اتحاف الورى ج ١٣١/١ وما بعدها .

انا رجل لا مال لى . وقد اشتد الزمان علينا . وهذه عير قومك قد حضر — اى حان — خروجها الى الشام .

وخديجة بنت خويلد تبعث رجـالا من قومك فى عير لها . فلو جئتها فعرضت نفسك لاسرعت اليك .

فبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له . فأرسلت اليه فى ذلك وقالت :

انا اعطيك ضعف ما اعطى رجلا من قومك .

فقال ابو طالب : هذا رزق قد ساقه الله اليك .

وفى رواية ان خديجة هى التى عرضت عليه كما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق الحديث . وعظم الأمانة . وكرم الاخلاق .

* * *

لقد عاش محمد الصبى فى كنف عمه ابى طالب عزيزا موفور الكرامة .. على النحو الذى مر بك .

لكن الزمان قد تغير واشتدت وطأته على رب الأسرة . فضاقت يده عن الانفاق .

فكان من الوفاء لمحمد تدبير عمل شريف يفى بحاجاته .. بقدر ما يخفف العبء الضاغط على كاهل عمه .

فكان أن صارح ابو طالب محمدا باغتباطه بما وافقت عليه

السيدة خديجة بنت خويلد حينما علمت برغبة محمد فى الاشراف على تجارتها مع العير المتأهبة للسفر الى الشام .

وهكذا يواجهه العم بشدة الموقف .. ويعلمه فى نفس الوقت كيف يتحمل المسئولية فى بواكير حياته . وان عرض الفتى نفسه على آخر طالبا عملا امر طبيعى لا يشين الرجل .. وانما الذى يشينه حقا . أن يرى الزمن يضغط بشدة على والده .. ولا يحرك ساكنا .. راضيا ان يعيش عالة على حساب المتاعب والمصاعب التى يلاقيها والده !!

ويلاحظ أن ابا طالب لم يتركه حائرا يصارع الظروف وحده . وانما وقف معه . فدله على الطريق . واقترح عليه نوع المهنة(٢٩). وجهة العمل .

ولم تهبط عليه فرصة العمل جزافا .. ولكن سمعته الطيبة هى التى رشحته للوظيفة عن جدارة واستحقاق .

فلم تكد خديجة تسمع بالفكرة حتى اسرعت هى اليه وكان رجاؤها حارا ان يقبل العمل لها .. بدليل ما عرضته عليه من رزق فاق رزق غيره ممن عمل لها من قبل .

* * *

---

(٢٩) المهنة بالفتح . والكسر فى لغة .

ولقد ادى التاجر الأمين محمد دوره بصـــدق وأمانة فنجح نجاحا منقطع النظير : وذلك بأنه :

١ ـــ باع تجارته التى خرج بها .

٢ ـــ وربح ضعف ما كان يربح غيره .

٣ ـــ ثم اشترى ما رأى شراءه لازما .

٤ ـــ فلما قـــدم لخديجة كشف الحســـاب .. الى جانب ما اخبرها به غلامها ميسرة رفيقه فى الطريق .

وحينئذ برزت لها شخصية محمد صـــلى الله عليه وسلم ..

الصادق .. الأمين .. وفوق ذلك ما راته وما سمعت به من رعاية الهية تحيط به كلما غدا أو راح .

وعندئذ اختمرت فى عقلها وقلبها فكرة الزواج من محمد صلى الله عليه وسلم . لمـــا رجت فى ذلك من الخير .

ولقد كان تقرير ميسرة الـــذى قدمه الى خديجة .. والتى رفعته بدورها الى ابن عمهـــا ورقة بن نوفل كان هـــذا التقرير فاتحة فصل جديد من فصول حياته الشريفة يعتبر بحق مثلا يحتذى لمن أراد من شبابنا أن ينسج على منواله .

ان رســولنا الكريم لم يرض لنفســـه أن يـــكون عالة على غيره .. ولـــكنه دخل معركة العيش برأس ماله وهو : السمعة الطيبة .. والخبرة الصادقة .. ففتحت له الأبواب .. فتقدموا أيها الشباب .. فاعملوا .

فكما أن السماء لا تمطر فضة ولا تمطر ذهبا .. فهى كذلك لا تمطر سكنا ولا زوجة .

وضريبة النجاح .. ان تخوض غمرات الكفاح .

* * *

قصة زواجه من خديجة

ارسلت خديجة صديقتها « نفيسة » دسيسا الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يا محمد :

ما منعك ان تتزوج ؟

قال : ما بيدى ما أتزوج به .

قالت : فان كفيت ذلك ؟ ودعيت الى المال والجمال والشرف والكفاءة .. الا تجيب ؟

قال : فمن هى ؟ قالت : خديجة .

قال : وكيف لى بذلك ؟ قالت : على .

قال : افعل .

فاخبرتها فارسلت اليه ان ائت لساعة كذا وكذا . وارسلت الى عمها عمرو بن اسد ليزوجها(٣٠) .

---

(٣٠) اتحاف الورى / ج ١ / ١٢٥ — ١٢٦

كانت خديجة رضى الله عنها من الشرف فى ذروته .

ويكفى انها كانت تلقب فى الجاهلية بالعفيفة الطاهرة .

مما حمل الكثير على طلب يدها .. بيد أن القدر الأعلى ادخرها لصاحب الخلق العظيم .. صلى الله عليه وسلم .

واذا كان اختيار المرء قطعة من عقله .. فقد اثبتت باختيارها محمدا سلامة تفكيرها وبعد نظرها .. حين استقرت أفكارها على خير من قذفت به أرحام الأمهات .

والانسان يبحث دائما عن شكله .. ومثله .

« قل كل يعمل على شاكلته »

فما تناسب من النفوس اتصل . وما تخالف منها انفصل .

فسر التمازج والتباين فى المخلوقات انما هو الاتصال والانفصال :

والشكل يستدعى شكله . والمثل الى مثله ساكن . متجه ومتجاوب فللمجانسة عمل محسوس . وتأثير مشاهد . والتنافر لا يكون الا فى الأضداد . والموافقة لا تكون الا فى الأنداد(٣١) .

* * *

(٣١) طوق الحمامة لابن حزم .

فما الذى جذب خديجة رضى الله عنها الى محمد صلى الله عليه وسلم ؟. لم يكن حسن الصورة فقط .. وإنما كما قالت هى :

(يا ابن عم : انى قد رغبت فيك لقرابتك . وشرفك فى قومك . وأمانتك . وحسن خلقك . وصدق حديثك(٣٢) .

واذن فلم تنبعث رغبة الزواج فى قلبها لنجاحه فى تجارتها .

وانما كانت للرغبة أصولها :

فهو قريبها .

وهو على خلق عظيم .

وأعظم ما يتحلى به هو : الأمانة .. وصدق الحديث .

ورغم فقره فقد ظلت نفسه فوق الثريا .. شرفا ونبلا .. وقد دلت البداية على النهاية .. فقد كانت خير زوجة .. لخير زوج .. حين جاء تقديرها للأمر وتكييفها للظروف واقعيا .. متئدا .

فلما اقتنع العقل المتأنى .. منحه القلب أشواقه .

فمضى الحب يسعى على قدمين .. أو يطير بجناحين حتى بلغ سماء لا يطار لها على جناح ولا يسعى على قدم .

* * *

ولقد ولدت فكرة الزواج فى عقل خديجة وقلبها .. لتعيش

---

(٣٢) سيرة ابن هشام ج ١ : ٢٤٠/٢٠٥ ط الجمهورية .

ابدا .. بل ولتتخطى الزمان والمكان .. ليكون الزوجان معا فى الجنة خالدين فيها . على ما يقول سبحانه :

﴿ ربنا .... وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ ﴾ (٣٣)

اختيار المؤمنة لشريك حياتها :

وضح لخديجة رضى الله عنهـا ان محمدا طراز فريد بين الرجال . بما يتمتع به من شمائل عظام .

وتحركت فى قلبها رغبة صادقة ان يكون زوجها المرتقب . بل وعرضت هى نفسها عليه . وما تحركت هذه الرغبة التى لم تفصح عن اتجاهها . الا بعد الدراسة والبحث الطويل .

وعلى الطبيعة بعد الاختيار فى مجال التجارة .. وهو ميدان حساس .. من حيث تعلق النفوس بالمـال وصعوبة التفلت من اغرائه . ولا يثبت أمام بريقه الا أولو العزم من الناس .

* * *

---

(٣٣) سورة غافر آية ٨

لم تكن هى الرغبة المتعجلة .. او النظرة السريعة يغريها المنصب .. او يأسرها جمال خداع .. ثم بعدها فليكن الطوفان.. وانما هو الادراك البصير بعواقب الامور .. فى أمرٍ كالزواج ينبغى أن يؤسس على قواعد ثابتة غير قابلة للاهتزاز

* * *

ولقد عرضت نفسها عليه .

ولا بأس أن تعرض المراة نفسها على الرجل الشريف .

فالطيبات للطيبين .. والطيبون للطيبات .

وما اكثر الذين تقيدهم من تقاليد المجتمع قيود وأغلال . حين يردون الفتى الصالح .. منصرفين عنه الى غيره من ذوى الجاه والمال والعشيرة .

وربما يمسك الخجل الممقوت السنتهم فلا يطلبون الفتى الصالح لأبنتهم الصالحة .. لأن تقاليد المجتمع لا تسمح .. وتعجب من اناس مستسلمون لتقاليد البيئة الى درجة الخنوع .. ثم يزعمون انهم يحبون أبناءهم وبناتهم .. لكنهم حين يختارون لهم يتصرفون تصرف الاعداء .

* * *

وها هى ذى خديجة رضى الله عنها تضرب الأمثال للناس .. فتختار صاحب الدين والخلق وبنفسها .. وفى ذلك عبرة لمن اراد أن يتخذ الى السعادة سبيلا .

وها هو ذا عمه ابو طالب يشهد بذلك يوم اتمام زواجه صلى الله عليه وسلم بخديجة .. ويقول :

(.. ثم ان ابن اخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل شرفا ونبلا وفضلا . وان كان فى المال قلا . فان المال ظل زائل . وامر حائل . وعارية مستردة . ثم قال :

« وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم . وخطر جليل » .

* * *

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم قليل المال .. كغيره من الأنبياء .. وبذلك تمرس على القناعة . والرضا باليسير من حطام الدنيا .

ثم زوده ذلك بمشاعر الرقة على الفقير والرحمة بالعاجزين .

ثم رعى الغنم .. فكان ان رسخت ملكة الصبر واليقظة والحذر فى قلبه .. وعايش التجار ورأى ما تحفل به الأسواق من الميل الى الحلال والحرام .. وما تضج به من ايمان صادقة وكاذبة .. فكان أن اتسع أفقه .. وانكشف له الغطاء عن الوان من الناس ما كان ليحيط بأخلاقها علما لولا هذه المعايشة .. ولقد رأت فيه خديجة نموذج الرجل الكامل .. فاختارته لنفسها .. وكان هذا الاختيار آية من آيات الله تعالى . وفضلا منه ورحمة .

* * *

كيف تم الزواج :

إذا دل اختيـــار خديجة على رجاحة عقلها .. فماذا عنده صلى الله عليه وسلم ؟

لقد قبل الرسول صـــلى الله عليه وســـلم الزواج بخديجة رضى الله عنها قبولا شاهدا بحكمته صـــلى الله عليه وسلم . وحسه البصير بمعادن البشر .

ثم هو فى نفس الوقت مؤكد بطلان ما ذهب اليه المغرضون من أعداء الاسلام الذين رموه صـــلى الله عليه وسلم بالرغبة الملحة فى الزواج من خديجة بالذات فقد كان عليه الصلاة والسلام فى سن الخامسة والعشرين .. وكانت هى فى سن الأربعين .. الى جانب سابق زواجها من غيره .

ولقد ظل هـــذا الزواج قائما حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاما . وقـــد ناهز النبى عليه الصلاة والسلام الخمسين من العمر . دون أن يفكر خلالها بالزواج من امرأة أو فتاة أخرى . وما بين العشرين والخمسين من عمر الانسان هو الزمن التى تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النســاء . والميل الى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية .

ولكن محمدا صـــلى الله عليه وسلم تجاوز هذه الفترة من العمر . دون أن يفكر بأن يضم الى خديجة مثلها من الاناث(٣٤) .

* * *

---

(٣٤) البوطى فقه السيرة ٥٨

ويبقى بعد ذلك فى قصة الزواج دروس وعبر :

فخديجة الشريفة الحرة ترسل اولا صديقتها الحميمة « نفيسة » لتستكشف الأمر .. وتتلمس مدى رغبة الرسول فى الزواج . لتنوب عنها فى تحمل ما فى المواجهة من حرج .. ولتحميها من قسوة الموقف لو لم يكن هناك قبول .. ويكشف الحوار السريع عن حكمة الصديقة الوفية .. التى تلمح الى انك شاب .. قد اكتملت رجولتك .. فما الذى يمنعك من الزواج ؟

فلما اخبرها صلى الله عليه وسلم بصراحة الأبرياء انه لا يملك مئونة الزواج .. صارحته أيضا بأنه لا مشكلة اذن .

فلن يشكل المهر عقبة .. بالاضافة الى الجمال .. والعفة .. والشرف .. كل أولئك بين يديك .. ولو أردت .. فلما ذكرت خديجة رضى الله عنها .. احس بالرغبة الأصيلة نحوها .. ولكن كيف السبيل ؟

وتحملت « نفيسة » تبعة اتمام الزواج .

وبدأ الاستعداد لتنفيذ الفكرة .

* * *

أرسلت خديجة الى عمها عمرو بن أسد .. ليزوجها .. وارسل هو ايضا الى اعمامه .

ليأخذ الزواج سمته اللائق به .. مشمولا باعراف العرب التى لا تجعل من الزواج نزوة طارئة تبرق فى قلبين .. ثم تخبو .

ولكنه العهد الوثيق .. يتم تحت اشراف الآباء .. اعلانا .. ونقديرا .. وابتهاجا .

* * *

وهذا هو الزواج..كما ينبغى أن يكون صادرا عن التفكير.. لا عن النظرة العجلى والنزوة الطارئة .

* * *

رسول الوحدة :

وعند بناء الكعبة اختلفوا فيمن يضع الحجر الاسود :

ادعت كل قبيلة انها أحق بوضعه .

ثم اتفقوا على تحكيم أول قادم يدخل من باب بنى شيبه .

وكان من تدبير الله تعالى ان يكون الداخل الأول محمدا صلى الله عليه وسلم .

وقالوا : هذا الأمين . قد رضينا بما يقضى بيننا .

فوضع رداءه . وبسطه على الأرض .

ثم وضع الحجر عليه . ثم قال :

ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل . ثم احتمل الأربعة الحجر حتى وصلوا الى مكانه فى الكعبة وأخذه الرسول ووضعه فى مكانه .

وهكذا أذهب الله به الخلاف . وحقق الائتلاف .

من تجارة الدنيا الى تجارة الآخرة :

كان اشتغاله — صـــلى الله عليه وسلم بالتجارة — فرصة اتاحت له أن يتقلب فى البلاد . وما يثمره ذلك من خبرات وتجارب عن طريق لقاءاته ومعاملاته مع اجناس مختلفة من البشر .. وفى مزدحم البيع والشراء وما يظهره من خلائق الرجال وعاداتهم .

الى جانب ما توفره التجارة من ربح يصون حياته .

* * *

ثم كانت التجارة مسرحا أكد للناس مدى أمانته وصدقه فى مجال قل فيه الأمناء والصادقون .

وقد ظهر ذلك لخديجة رضى الله عنها مما حملها على اظهار رغبتها فى الاقتران به .

.. فكان لها بتدبير الله تعالى هذا الدور الخطير . خاصة فى اللحظات الأولى . التى نزل فيها الوحى الأعلى . فكانت نعم النصير . الذى ثبت أقدامه صلى الله عليه وسلم . ثم واصـــل الدعوة الى ربه فى صحبة زوجته الوفية .

* * *

وشاءت ارادة الله تعالى أن ينتقل من تجارة الدنيا الى تجارة الآخرة . والتى تنجى من عذاب أليم . وذلك بنزول الوحى عليه .

وقبل ذلك كان لنزول الوحى تمهيد تمثل فى عزلته صـــلى الله عليه وسلم .

العـــزلة :

يقولون :

(اذا حال غيم الهوى بين القلوب وبين شمس الهدى تحير السالك) .

وهكذا : كانت حياة البيئة التى نشأ فيها صلى الله عليه وسلم : لقد حجزهم الهوى فى سجن اللذات فلم يروا طلائع النور .

ولما كان صلى الله عليه وسلم على النحو الذى عرفت :

سمو نفس . وصفاء قلب . فقد كان طبيعيا أن تتسع شقة الخلاف بينه وبين قومه وأن يحس بالغربة بينهم .. فحبب الله اليه الخلاء ليخلو بنفسه . ناجيا بها من معترك الحياة الصاخبة اعدادا لها كى تتحمل دورها القريب فى صدق وأمانة :

يقول الخطابى البستى مشيرا الى غربة المصلح فى وطنه :

وما غربة الانسان من شقة النوى
ولكنها والله من عدم الشكل

وانى غريب بين بست وأهلها
وان كان فيها أسرتى وبها أهلى

يقول ابن قيم الجوزية(٣٥) :

(اذا رزقت يقظة فصنها فى بيت عزلة

---

(٣٥) بدائع الفوائد ٢٣٥

فـــان أيـــــدى المعــــاشرة نهـــابة
وأحـــذر معاشرة البطالين فان الطبع لص

لا تصـــادقن فاســـــقا ولا تثق اليــــه
فـــان من خان أول منعم عليـــه لا يفى لك

* * *

عزلة المسلم :

روى عن النبى صـــلى الله عليه وسلم انه قال :
(أنا برىء من كل مسلم مع مشرك .

قيل : لم يا رسول الله ؟

قال : لا تراءى ناراهما .

قال ابن الأثير : أى يلزم المسلم ويجب عليه أن يباعد منزله عن منزل المشرك . ولا ينزل بالموضع الــذى اذا أوقدت فيه ناره تلوح وتظهر لنار المشرك اذا أوقدها فى منزله . ولــكنه ينزل مع المسلمين فى دارهم .

وانما كره مجاورة المشركين لأنهم لا عهد لهم ولا أمان(٣٦) .

ونضيف : أن مقاصد ذلك التباعد الفرار بالمسلم من أخلاق المشركين حتى لا يتأثر بهم لأن الطبع يسرق من الطبع . بخلاف ما اذا سكن فى ديار المسلمين فان رفقة الخير تزين له ذلك الخير . وتحضه بالقدوة عليه .

---

(٣٦) لســان العرب ج ١٥٤٢/١٨

فى غار حراء :

كانت عزلته صـــلى الله عليه وسلم « فى غار حراء بالذات » فقد كان يرى الكعبة المشرفة من داخله .. فهو مرتبط بالبيت ورب البيت حتى فى عزلته . وكانت عزلته صـــلى الله عليه وسلم فيه علامة على نزوع نفســـه وشــوقها الى الخلاص .

(وامست نظرته الى قومه نظرة عالم الفلك فى عصرنا ــ الى جماعة يؤمنون بأن الأرض محمولة على قرن ثور . أو نظرة عالم الذرة الى جماعة يتراشقون بالحجارة اذا تحاربوا . وينتقلون بالمطايا اذا سافروا(٣٧) .

(وكان اختياره صـــلى الله عليه وسلم لهذه العزلة طرفا من تدبير الله له . وليعده لمـــا ينتظره من الأمر العظيم .

ولابد لأى روح يراد لها أن تؤثر فى واقع الحيـــاة البشرية فتحولها وجهة أخرى .. لابد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت . وانقطاع عن شواغل الأرض وضجة الحياة . وهمـــوم الناس الصغيرة التى تشغل الحياة .

وهكذا دبر الله لمحمد صـــلى الله عليه وسلم وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى . وتغيير وجه الأرض . وتعديل خط التاريخ.. دبر له هـــذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات . ينطلق فى هـــذه العزلة شـــهرا من الزمان مع روح الوجود الطليقة .

ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون . حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله(٣٨) .

---

(٣٧) فقه السيرة للغزالى ٨٨
(٣٨) فى ظلال القرآن ١٦٦/٢٩ : ١٦٧

ومعنى ذلك أن العزلة فرار بالنفس من واقع يلح عليها بكثير من الأمراض القلبية .. والتى لا نجاة من تأثيرها الا بفراق المجتمع نفسه زمنا معلوما .

ثم هى من ناحية أخرى قرب من الحق سبحانه وتعالى يربى ملكة الحب له والتقديس لذاته .

فاذا امتدت فى حنايا القلب عاطفة الحب .. واذا برئت النفس من مجاراة المجتمع فيما يعج به من باطل .. عادت بعد ذلك الى ساحة المعركة بين الحق والباطل وهى عصية على الانحراف .. قادرة على الدفاع وعلى الهجوم .

العزلة ليست انقطاعا كاملا عن الحياة :

ويلاحظ أنه صلى الله عليه وسلم كان فى عزلته (يأخذ معه السويق والماء .. ويطعم من جاءه من المساكين(٣٩)) .

بمعنى أنه لم يتحول بالعزلة ملكا مبتوت الصلة بالبشر ..

وانما هو فى خلوته يتأمل .. ويتفكر .. وما تزال نفسه تقوم بدورها فى الاصلاح : يعمل ليأكل من عمل يده .. ولا ينسى حق أهله عليه — فلا يغيب الا أياما معدودات .

ان لزوجه عليه حقا .. وللناس عليه حقا .. وحق ربه تعالى لا يضيع ذلك كله .

---

(٣٩) راجع كتب السيرة .

ونلفت نظر بعض المتشـــددين الذين يكلفون أنفسـهم ما لا تطيق .. نلفت نظرهم الى ما ذكره طلائع الجغرافيين العرب من ان غار حراء وما حوله حينئذ لم يكن صحراء قاحلة .. ولكنه كان معشوشبا تكسوه خضرة . ليعلموا ان عزلته صلى الله عليه وسلم لم تكن قتلا للدوافع النفســية .. ولا انقطاعا كاملا عن مباهج الحياة .

يقول بعض الباحثين(٤٠) :

(ومحمد صلوات الله وسلامه عليه كان اذا خرج الى غار حراء . لم يكن يمر فى طريق موحش ليس بذى نبات ولا غرس .

انما كان يسير فى طريق لين سهل . فيه خضرة قليلة . وشجر وبعض ماء . وكان اذا وصل الى حراء لم يشق عليه الصعود اليه كما يشق علينا اليوم وذلك لما يتوفر له من عزيمة صادقة تزيده قوة وتسهل له الصعاب) .

ويعنى هذا :

اختيار غار حراء موطنا للتعبد كان تدبيرا الهيا .. ينشرح به الصدر .. وتبتهج النفس .. ويجد العقل فرصته للتحليق فى ملكوت الله تعالى .. فى جو كل ما فيه يشهد بوحدانية الله .. بعيدا عن صخب الحياة .

***

---

(٤٠) دراسات فى السيرة النبوية .

ولا شك انها عزلة . وان شئت قلت : خطوة الى الوراء تجيء القفزة بعدها محكمة . يصل بها الانسان الى هدفه .

وليست هى الرهبانية الذاهبة بالانسان الى سفوح الجبال بلا عودة . لأنها بهذا المعنى فرار من الميدان . على ما يقول الرافعى يصف الرجل السلبى :

(يحسب أنه قد فر من الرذائل الى فضائله .

وماذا تكون العفة والأمانة والصـــدق والوفـــاء . والبر والاحسان اذا كانت فيمن انقطع فى صحراء . أو على رأس جبل ؟

أيزعم أحد ان الصدق فضيلة فى انسان ليس حوله الا عشرة أحجار ؟

وأيم الله ان الخالى عن مجاهدة الرذائل جميعا . لهو الخالى من الفضائل جميعا(٤١)) .

❋ ❋ ❋

ان الفرار من الحياة الصاخبة ضرورة أحيانا فى حياة الفرد العادى . كى يستجم استجماما يعده لمرحلة تالية يكون فيها أقدر على ممارسة دوره بتفوق . وهو لازم بين بالمعنى الأخص فى حياة حملة الرسالات :

حين يستعلون بالعزلة على جـــواذب الأرض .. ليتحرروا من اسارها . حتى يخلص الفؤاد للحق .

---

(٤١) وحى القلم ٩٧/٢

واذن فقد كان محمد صلى الله عليه وسلم بشرا فى قمة الكمال البشرى .. ولم يكن ملكا .. والا لما استطاع أن يقوم بالبلاغ .. وقد كانت الخلوة(٤٢) نقطة تحول فى حياته تقف به بين عالم الملائكة وعالم البشرية ليصلح عندئذ للتلقى عن الملك :

فجبريل ملك بكل ما تحمل الكلمة من روحانية علوية .

ومحمد عليه السلام :

(أ) بشر .

(ب) وهو بالخلوة روحانى .

فهو مزدوج الطبيعة .

ولكى يتمكن من التعامل مع عالم الملائكة لابد من :

ترقيق الطبيعة البشرية بهذه الخلوة .

أى انها شبيهة بفترة حضانة لمبدأ الرسالة .

الى جانب ما حدث من « غط » جبريل له .

هذا الغط الذى يشبه أن يكون تفتيتا لعلائق البشرية لتستعد للتلقى .. وليس ذهابا بالبشرية جملة . والا لما تمكن من مخاطبة الأمة وقيادتها .

ولعل هذا ما أشار اليه العلماء :

(ان مع الخلوة فراغ القلب . وهى معينة على التفكر .

والبشر لا ينتقل عن طبعه الا بالرياضة البليغة .

---

(٤٢) راجع « محمد رسول الله » للشيخ عرجون ج ٢١٦/١

فحبب اليه صلى الله عليه وسلم الخلوة لينقطع عن مخالطة البشر . فينسى المألوف من عاداته . فيجد الوحى منه مرادا سهلا لا حزنا(٤٣)) .

أى أن الوحى حين ينزل .. ينزل على طبيعة بشرية أقرب ما تكون الى أفق الملائكة . فيعينها ذلك على حسن التلقى والاستيعاب ..

* * *

يقول العارفون بطبائع النفوس — ومنهم ابن عربى — ان اشراق النفس .. ووصولها الى مرفأ اليقين .. يلح عليها أن تنجو من صخب الحياة والاحياء .. ليخلو الانسان بنفسه بعيدا .

(ومادام الأمر أمر نبوة قادمة . فلا يتفق مع جلالها ان يكون محمد منصرفا الى شئون المعاش . مخالطا للناس . ثم يطرقه الوحى بغته وسط الخلق . أو وهو خال فى بيته . مع أهله من زوج أو ولد .

ان الخلوة فى الجبل أصبحت حينئذ خطوة من خطوات الدخول فى النبوة .

ومن هنا فقد كان أساسيا أن تكون الخلوة لفترات طويلة . لأن محمدا هنا يبتعد لبعض الوقت عن البشر . ليتم تحوله الروحى . ويستعد لتلقى الرسالة . ثم يعود الى الناس نبيا مرسلا . لكى يدعوهم الى الدخول فيما ألقى الله فى صدره من الايمان(٤٤)) .

---

(٤٣) عمدة القارىء بدء الوحى .
(٤٤) دراسات فى السيرة النبوية د. حسين مؤنس .

محمد صـــلى الله عليه وسلم بين الأنبياء :

يقول صلى الله عليه وسلم :

(مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه واجمله الا موضع لبنة من زاوية من زواياه . فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة . وأنا خاتم النبيين(٤٥)) .

وفى الليلة التى نزل جبريل عليه السلام بالوحى أول ما نزل .. وضعت هـــذه اللبنة .. وكمل البناء .. وبزغ ضوء الصبح يشق اطباق الظلام .

وفى هذه اللحظة بدأت الرحلة المباركة .. وتمت مكارم الأخلاق التى هى ميراث النبوة الحقيقى :

(انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق(٤٦)) .

❋ ❋ ❋

عندما اعترض المشركون على اختيار محمد صلى الله عليه وسلم للرسالة فيما حكاه القرآن الكريم عنهم :

○ ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾(٤٧)

---

(٤٥) رواه مالك فى الموطأ وأصحاب السنن .

(٤٦) رواه البخارى ومسلم .

(٤٧) سورة الزخرف آية ٣١

كان الرد الالهى مسفها لهم حيث قال :

﴿ ــــــــــــــــــ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾ (٤٨)

انهم تقلبوا فى اعطاف النعيم كابرا عن كابر . فأفسد النعيم فيهم ملكة التمييز . وحرمهم من صحة الحكم .

كيف وهم أسارى قيم المـال . والجمال . والمنصب .

واذ قسم الحق تعالى هذه الحظوظ دون اخذ رأيهم . فكيف بالرسالة العظمى وهى أجل وأسمى ؟

انها رحمة الله تعالى يقسمها كيف يشاء . ولا صـلة لهم بقسمتها اطلاقا . ودورهم فقط : ان يتعرضوا لآثارها على يد من اختاره تعالى لتبليغها .

* * *

---

(٤٨) سورة الزخرف آية ٣٢

واصطفاء الحق تعالى من عباده من لم يكن ذا مال وبنين .. ومحمدا صلى الله عليه وسلم بالذات . انما جاء طبق سنة الهية تبينها طبيعة الرسالة ذاتها :

أجل . انه صلى الله عليه وسلم لم يكن يملك من حطام الدنيا شيئا يستلفت الأنظار .

ولكنه كان يملك من عظيم الأخلاق ما استحق به الاصطفاء للرسالة .

(ان العظائم كفؤها العظماء) .

واذن فهو بأخلاقه يعكس طبيعة الرسالة التى قدر لها أن تشق طريقها بين الصخور بقواها الذاتية . على لسان رسول يملك من قوة الشخصية ما يغنيه عن كل طلاء كاذب ، (لقد اختار لها من يعلم انه لها أهل .

ولم يشأ الحق سبحانه أن يجعل لهذه الرسالة سندا من خارج طبيعتها . ولا قوة خارج حقيقتها . فاختار رجلا ميزته الكبرى : الخلق .. وهو من طبيعة هذه الدعوة . وسمته البارزه : التجرد .. وهو من حقيقة هذه الدعوة .

ولم يختره زعيم قبيلة . ولا رئيس عشيرة . ولا صاحب جاه . ولا صاحب ثراء .. كى لا تلتبس قيمة واحدة من قيم الأرض بهذه الدعوة النازلة من السماء .

ولكى لا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلى هذه الأرض ليس من حقيقتها فى شيء .

ولكى لا يكون هنــاك مؤثر مصاحب لها . خارج عن ذاتها المجردة . ولكى لا يدخلها طامع . ولا يتنزه عنها متعفف(٤٩)) .

* * *

واذا فقد كان صــلى الله عليه وسلم بأخلاقه العظيمة . على موعد مع الرسالة العظيمة . لبثمر هــذا اللقاء المبارك من كل الثمرات .

وحتى هؤلاء الحنفاء الذين عبدوا الله تعالى على ملة ابراهيم عليه الســلام على ما كان لديهم من صـــدق النوايا . وسلامة الوجهة . لكنهم لم يكونوا على مستوى هــذه المسئولية العظمى .

فلم تكن القضــية قضــية نوايا طيبة بقــدر ما كان الأمر « خلوص المحل الذى يملؤه هذا الأمر الخطير » كما قيل بحق . خلوصا بمحض وجود الرسول للرسالة وتبعاتها .

ومن وراء ذلك كله : ارادة قوية ماضية بالناس الى مرضاة الله .

يقول الشيخ محمد الغزالى فى هذا المعنى :

(ان زيد بن عمرو بن نفيل واحد من المفكرين القلائل . الذين سخطوا ما عليه الجاهلية من فكر .

انه ليشــكر على تحريه الحق . ولا يغمط هو ولا غــيره أقدارهم بين قومهم . لكن القدر كان يتخير رجــلا يبصر الحق .

---

(٤٩) فى ظلال القــرآن .

ويملك من الطاقة ما يدفعه به الى آفاق العالمين . فى وجه مقاومة تسترخص النفس والنفيس للابقاء على الضلال . والامساك بليله البارد الثقيل .

كان القدر يعد لهذه الرسالة العظيمة رجلها العظيم(٥٠)) .

ونزل الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم .. فكان نزوله رد اعتبار لكرامة الانسان التى ضيعت على موائد المتعة الرخيصة .. وفى ميادين القتال الهمجى . وردا لاعتبار العقل الذى شغل نفسه بأساطير الأولين زمنا طويلا .. ثم رفع جبهة الانسان المعفرة بتراب السجود لغير الله تعالى لتشمخ وتطاول السماء .

براعة الاستهلال فى الرسالة الخاتمة :

روى البخارى فى الجامع الصحيح باب : كيف بدأ الوحى :

عن عائشة ام المؤمنين رضى الله عنها قالت :

(أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى : الرؤيا الصالحة — أو الصادقة — فى النوم . فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح .

ثم حبب اليه الخلاء . وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه — والتحنث : التعبد . الليالى ذوات العدد . قبل أن ينزع الى أهله . ويتزود لذلك .

ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها .

---

(٥٠) فقه السيرة ٨٨

حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء . فجاءه الملك فقال :

اقرأ . قال : ما أنا بقارىء .

قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء .

فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد . ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء .

فأخذنى فغطنى الثالثة . ثم أرسلنى فقال :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده . فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها . فقال : زملونى . زملونى . فزملوه حتى ذهب عنه الروع .

فقال لخديجة بعد ان اخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى.

فقالت خديجة :

كلا . والله لا يخزيك الله ابدا .

انك لتصل الرحم .

وتصدق الحديث .

وتحمل الكل .

وتكسب المعدوم .

وتقرى الضيف . وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل .. ابن عم خديجة .

وكان امرا تنصر فى الجاهلية .

وكان يكتب الكتاب العبرانى .

فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب .

وكان شيخا كبيرا قد عمى .

فقالت له خديجة : يا ابن عم . اسمع من ابن أخيك .

فقال له ورقة يا ابن أخى : ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى .

ياليتنى فيها جذعا(٥١) . ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك ..

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجى هم ؟ قال : نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودى .

وان يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا . ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى) .

---

(٥١) أى شابا قويا .

وقفة تامل :

عندما أراد سبحانه انزال وحيه على رسوله صلى الله عليه وسلم اختار اللحظة المناسبة .. فى ظروف مواتية تشير بكل حركة فيها الى أسس الدعــوة الجديدة : لقــد قعدت من القواعد . وأصلت من الأصــول ما كان منطلقا للدعــوة .. فكانت بحق براعة استهلال لرحلة الدعوة الطويلة .

الرؤيا الصادقة :

قال صلى الله عليه وسلم :

(الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان) .

يقسم الحديث الرؤيا المنامية الى رؤيا صالحة ويبين ان مصدرها الله والى نوع آخر يسميه « حلما » ويبين أن مصدره تصويرات الشيطان للنفس .

والحديث يقرر بذلك نظرية الاســلام عن الأحلام ، فهنالك الرؤيا الصادقة التى قد تكشف عن المستقبل لأنها نوع من الوحى ، وحقيقتها انطلاق الروح فى حال خمود نوازع الجسم الشاغلة لها حال اليقظة الى عالم الملــكوت الذى نقش فيه كل ما هو كائن ، وما سيكون من أحوال المخلوقات ــ وهو عالمها الأصلى ــ فتلقف من هنالك بعض العلم وتعود به لصــاحبها بصــورة صريحة أو بصورة رمزية ، فتلك هى « الرؤيا » .

وأما الحلم فهو من تخيلات الشيطان للنفس ، وقــد يكون الشيطان رمزا لــما يسميه علماء النفس المحدثون بكبت الرغبات

فان ــ الشــيطان ــ وهو روح خبيث هو الــذى يذكى رغبات الانسان المــادية .

ويرى « فرويد » وجميع مقلديه ، ان الأحــلام منحصرة فى الصنف الثانى المعلل بـــ « كبت الرغبات » وينكرون الصنف الالهى انكارا باتا وليس فى الجهل ما هو أشد من هــذا الانكار الــذى ترده التجربة المستمرة وخبر المعصوم(٥٢)) .

اما الرؤيا الصالحة :

فقد كان محمد صلى الله عليه وســلم يصحو منها منشرح الصدر . متفتح النفس لكل ما فى الحياة من جمال .

كانت مرحلة اشراق روحى دخل فيها محمد ليبتعد عن الحياه ويرتفع عن صغائرها دون أن ينفصل عن الناس .

وهى تمهيد طبيعى للانتقال الى مرحلة أخرى من مراحل النبوة.

وتعبير « فلق الصبح » هنا يعيننا على تصورها :

فان الانسان منا اذا قضى ليلة هادئة نام فيها نوما هنيئا . واصبح فنظر الى حديقة ذات أشجار وخضرة وزهور .. احس فى نفسه فعــلا : كأن نفسه تمتلىء بنور صاف . يشبه الفلق . وهو ضياء الصبح اذا انبلج .

ويفسر المفسرون الفلق فى قوله تعالى :
(قل أعوذ برب الفلق) .

---

(٥٢) كلمة للدكتور محمد سعاد جلال .

بأن الله سبحانه وتعالى فلق ظلمة العدم بنور الايمان .

وهذا النور هو الذى كان يملأ نفس محمد عندما يصحو بعد رؤية من هذه الرؤى الصالحة(٥٣)) .

❋ ❋ ❋

ان من شأن المفاجأة ان تربك الانسان . وتشل قدرته على التمييز والاختيار .. فلا يستطيع اتخاذ القرار المناسب .

وقد شاءت حكمته تعالى — وهو اعلم بمراده سبحانه — أن تكون الرؤيا الصادقة اول ما يلاقى من بوادر الوحى .. حتى اذا دقت ساعة الجهاد . كانت النفس مستعدة للتلقى يقظة .

وقد ذكرت بعض الروايات أن مجىء جبريل يقظة سبقه(٥٤) مجيئه مناما وبنفس الصورة . تهيئته للرسول صلى الله عليه وسلم .. على نحو يعايش فيه الظروف الجديدة حتى لا تثقل عليه لو جاءته دون سابق انذار .

❋ ❋ ❋

وامر آخر :

فقد كانت الرؤيا أيضا اعدادا للأمة التى تعيش معه .. حتى تزامله فى رحلة الكمال .

انه يذكر لهم ما يشاهد فى منامه . وتصدق نبوءته . ويفسر الواقع ما رآه فى منامه .

---

(٥٣) د. حسين مؤنس : دراسات فى السيرة النبوية ٧٨/٧٩

(٥٤) راجع : محمد رسول الله ج ٢٧/١ وما بعدها .

وانهم ليستشرفون معه أفقا أعلى من واقع يتحكم فيهم بتقاليده حتى اذا عاد يوما من فوق الجبل يخبرهم بالوحى كانوا مستعدين للتجاوب معه .

وهنا نذكر منهج الاسلام فى البدء بالتشديد أحيانا توطيئا للنفس على الامتثال .

ثم التخفيف أحيانا تلطفا بالنفس ابتداء حتى لا تنفر من التكليف جملة .. ولعل فى بدء الوحى وما كان فيه من التيسير بالرؤيا الصادقة أولا .. ثم التشديد بالأمر بالقراءة مع أميته صلى الله عليه وسلم .. ثم بغطه على النحو الذى تم به ما يشير الى درس فى اعداد النفوس للتلقى . حين يبدأ التعليم النظرى باليسير من القضايا .. جذبا للنفس الى مجالس العلم .

ثم بالتشديد عند التكليف لتنطلق النفس بعد تخطى العقبة مستسهلة كل صعب. جاء فى بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية(٥٥).

تأمل الحكمة فى التشديد أول التكليف . ثم التيسير فى آخره بعد توطيد النفس على العزم والامتثال فيحصل للعبد الامران :

الأجر على عزمه .

وتوطين نفسه على الامتثال والتيسير والسهولة بما خفف الله عنه :

فمن ذلك أمر الله تعالى رسوله بخمسين صلاة ليلة الاسراء ثم خففها وتصدق فجعلها خمسا .

---

(٥٥) ج ١٨٤/١٨٣/٣

ومن ذلك :

أنه أمر أولا بصبر الواحد الى العشرة . ثم خفف عنهم ذلك الى الاثنين .

ومن ذلك :

انه حرم عليهم فى الصيام اذا نام احدهم أن يأكل بعد ذلك . أو يجامع . ثم خفف عنهم باباحة ذلك الى الفجر .

ومن ذلك :

أنه أوجب عليهم تقديم الصدقة بين يدى مناجاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما وطنوا انفسهم على ذلك خففه عنهم .

ومن ذلك :

تخفيف الاعتداد بالحول .. بأربعة أشهر وعشرا وهـذا كما يقع فى الابتلاء بالأوامر فقد يقع فى الابتلاء بالقضاء والقدر :

يشدد على العبد أولا . ثم يخفف عنه .

وحكمته تسهيل الثانى بالأول وتلقى الثانى بالرضا . وشهود المنة والرحمة . وقد يفعل الملوك ببعض رعاياهم قريبا من هذا :

يطلبون منهم الكثير جدا . الذى ربما عجزوا عنه ثم يحطون الى ما دونه لتطوع لهم نفوسهم بذله . ويسهل عليهم .

وقد يفعل بعض الحمالين قريبا من هذا فيزيدون على الحمل شيئا لا يحتاجونه ثم يحط تلك الأشياء . فيسهل حمل الباقى عليهم .

ويقع فى الأمر والقضاء والقدر أيضا ضد هذا :

فيثقل عباده بالتدريج من اليسير الى ما هو أشد منه لئلا يفجأ هذا التشديد بغتة فلا تحمله . ولا تنقاد له . وهذا كتدريجهم فى الشرائع شيئا بعد شىء . دون أن يؤمروا بها كلها . وهلة واحدة . وكذلك المحرمات :

ومن هذا أنهم أمروا بالصلاة أولا ركعتين ركعتين . فلما ألفوها زيد فيها ركعتين أخريين فى الحضر . ومن هذا أنهم أمروا أولا بالصيام وخيروا فيه بين الصوم عينا وبين التخيير بينه وبين الفدية .

فلما ألفوه أمروا بالصوم عينا .

ومن هذا انهم أذن لهم بالجهاد أولا من غير ان يوجبه عليهم. فلما توطنت عليه نفوسهم . وباشروا حسن عاقبته وثمرته أمروا به وفرض عليهم فرض كفاية وحكمة هذا التدرج : التربية على قبول الأحكام والاذعان لها والانقياد لها شيئا فشيئا .

ميلاد الانسان :

عندما جاءه الوحى — صلى الله عليه وسلم — وهو فى غار حراء . ولد الانسان فى هذه اللحظة . وثبتت صلاحيته ليكون رسولا نبيا بعد أن ظن الجاهلون استحالة ذلك حين جردوا الانسان من صلاحية التلقى عن الله سبحانه وجعلوا ذلك للملك . دون الانسان !

أجل : ولد الانسان من جديد :

فهو مأمور بأن يقرأ . ليدخل بالقراءة عالمـا جديدا . فوق ما تعارف عليه المترفون .

ولتكون القراءة مفتاح نهضـة شاملة كاملة فى كل فن من فنون الدنيا .

وأن يرتبط ذلك كله بالحق . « **اقرأ باسم ربك** » .
انه بعث جديد فى دوافعه . وفى أهدافه .
ولا يفرض الأمر هنا قسرا :
وانما هو معلل بالدليل : « **الذى خلق** » .

أى أن العقل الذى تجمد على يد الطغاة فى فارس والروم ومن احتطب فى حبلهم يستيقظ اليوم على ضوء رسالة عظمى .. تحترم آدمية الانسان .. وتعترف به ناطقا مفكرا .. فتقدم له الدعوى .. مصحوبة بدليلها !

ومصحوبة أيضا بأدق مناهج التربية :

فالطالب عند التلقى لابد أن يكون فارغ البال . كامل الانتباه . ولا يتم ذلك الا بفتح كل منافذ حسه بمختلف الوسائل الممكنة .. وليكن ذلك ثلاث مرات لا تزيد !

وهكذا فعل جبريل عليه السلام بنبينا عليه الصلاة والسلام :

لقد غطه وبقوة ليستجمع انتباهه .. ولينقله الى قمة الكمال البشرى ليكون على مشارف الملكية حتى يتحقق نوع من التقارب يتم به التجانس . ويمكن من التلقى بوعى كامل !

* * *

لقد كانت المفاجأة مذهلة :

اولا : حين دخل عليه جبريل الغار بلا استئذان .

وثانيا : حين امره بالقراءة بمجرد الدخول كما يفيد التعبير « بالفاء » فقال : ومن ثم كان الفزع شـــديدا .. وكانت العودة الى خديجة وهو مضطرب الفؤاد .

وعندما خاف أن يكون قد ألم به شىء بادرته خديجة رضى الله عنها بما ينفى ذلك تماما .

وانها لتقول له : ابشر .. بينما الأفق كله ينذر بالغيوم .

ولكنها المرأة العظيمة : انهـــا ترى الفجر القادم من خلال الغيوم الداكنة ولا تقول ذلك دعوى بلا دليل لكنها تعزز منطقها بماضيه المشرف فى خدمة الخلق . فالحـــكم بعد الدراسة فكيف يخزيه الخـــالق ؟!

لقد وصفته باصول مكارم الأخلاق كلها .

لأن الاحســـان (اما الى الأقارب : أو الى الأجانب . واما بالبدن . أو بالمال . واما على من يستقل بأمره . أو من لا يستقل . وذلك كله مجموع فيما وصفته به(٥٦) .

وهذا ما لمسته على الطبيعة من أخلاق محمد ولم تقرأه بين دفتى كتاب . ان الرحمة فى طبعه عاطفة سائدة وانه يتجه بالرحمة الى الخلق الجديرين بها .

---

(٥٦) فتح البارى .

ومن ثم فالذين يشفقون على الخلق دائما فى عين الحق .

* * *

وكان من الممكن أن تستبد العاطفة بالمرأة هنا — وعاطفتها غلابة — فترتبك من هول المفاجأة .

لكن العقل هنا كان صاحيا فقاد خديجة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حيث الخبرة .. والتجربة لدى ابن عمها ورقة بن نوفل .

لقد كانت مكة حافلة بالخبرات والقيادات والأقارب .

ولكنها قررت أن تأخذ العلم من مظانه .. لأن التجارب الفطيرة لا تخدم الحق .

ولماذا ابن عمها ؟ ولماذا ورقة بالذات ؟ انه ابن عمها .. فهو اخلص لها .

ثم هو : شيخ .. وقور كبير .. له رصيد من التجارب .. ومن أهل الكتاب .. فهو أقرب الى الحق رحما .

ويجيد العبرية .. فهو واسع الثقافة .. على صلة بالكتب .. فلها عنده ذكر .. واذن فحكمه أصدق .. وكلامه أهدى .

خديجة تدير الحوار :

لقد تكفلت بتقديم الرسول الى ورقة .. واضعة بالتقديم(٥٧) قاعدة مهمة فى السلوك الاجتماعى :

---

(٥٧) راجع فى هذا المعنى كنوز السنة للدكتور محمد عبد الله دراز .

فقد قدمت الرسـول الى ورقـة .. وفيـه ارشـاد أن صاحب الحاجة يقدم بين يديه من يعرف بقدره..ممن يكون أقرب منه للمسئول(٥٨) .

ان المرأة التى كانت بالأمس موءودة تدفن حية فى التراب .. تقف اليوم الى جانب الرجل تمهد للرسالة تمهيدا يؤكد قدرتها فى ضوء الايمان على أن تكون شيئا مذكورا .

واذا كان الشاعر يقول :

ولابد من شكوى الى ذى مروءة
يسـليك او ينجيك او يتوجـع

فان خديجـة رضى الله عنها لم تقف عند حـد التسلية او التوجع . لكنها ارتقت الى درجة أعلى فى مشاركة ايجابية فاعلة .

وكان ورقة عند حسن الظن به وفاء واخلاصا :

فقد واجه محمدا صلى الله عليه وسلم بالخطر الذى ينتظره وعليه منذ الآن أن يستعد له .

ليستعد للغد المرتقب . وللمعركة الفاصلة الخطيرة التى تمنى ورقة أن يكون حيا . حينئذ .. وأن يكون شابا قويا ليقف الى جانبه فى معركة لا يثبت فيها الا الأقوياء ..

---

(٥٨) فتح البـارى .

وهنا تتم النصيحة كمالا ..

ويستعد الرسول الكريم للمستقبل فى صحبة احساس للمعركة الكبرى التى لن تكون مفاجأة له :

عرفنا الليـــالى قبل ما نزلت بنا
فلمـــا دهتنا لم تزدنا بها علمـــا

* * *

خديجة والبحث عن الحقيقة :

ولقد كانت لخديجة محاولة ذاتية تبينت فيها أن ما يجيئـــه صلى الله عليه وسلم ملك .. فبعد أن تعددت رؤية الملك .. أرادت أن تتبين هل هو ملك أم شيطان :

قالت لرسول الله : أى ابن عم :
اتستطيع ان تخبرنى بصاحبك الذى يأتيك اذا جاءك ؟
قال : نعـــم .
فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع .
قال لخديجة : هـــذا جبريل قد جاءنى .
قالت :
قم ابن عمى . فاجلس على فخذى اليسرى . ففعل .
قالت : هـــل تراه ؟
قال : نعم .
قالت : فتحول فاجلس على فخذى اليمنى . ففعل .

قالت : هـــل تراه ؟

قال : نعـــم .

قالت : فتحول . فاجلس على حجرى . ففعل .

قالت : هـــل تراه ؟

قال : نعـــم .

فكشفت راسـها . والقت خمارها . ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى حجرها .

ثم قالت له : هـــل تراه : قال : لا ..

قالت : يا ابن عم : اثبت وابشر . فوالله انه لملك . وما هذا الشيطان(٥٨) .

* * *

اذا كان صدق الرسول وامانته حقيقة مقررة فى ضمائر العرب حينئذ .. فقد كان فى تقدير خديجة معلوما بالضرورة .. لما شاهدته وسمعته عنه صلى الله عليه وسلم .. ثم لمـــا تزوجته علمت من صدقه ووفائه للحقيقة انه كان يتغاضى عن الهفوات الا اذا رأى على احد كذبة فلا يزال معرضا عنه حتى يحدث توبة .

واذن فلم تكن لديها ذرة من شك فى صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما يقوله عن هذا الذى يأتيه .. وانما هى فقط تريد

---

(٥٩) أيد ابن اسحاق هذه الرواية بأنه حدث بها عبد الله بن حسن (حفيد الحسن بن على) فايده وقال سمعت أمى فاطمة بنت الحسن تحدث بهذا الحديث عن خديجة — انظر ابن هشام ج ٢٣٨/١

ان تتأكد من طبيعته ليطمئن قلبها .. منطلقة فى ذلك من وفائهـــا لزوجها العظيم .. الذى يعيش منها فى بؤرة الشعور .. لا يغيب.. فلم تكن هى تلك الزوجة المعاصرة التى تغط فى نوم عميق بينما فى قلب زوجها ما يشبه الحريق .. تاركة شريك حياتها يغالب الأمواج وحـــده .

ومنطلقة — كذلك — من الدم المشترك والمصير المشترك من حيث كانا فى زورق واحد تتقاذفه هوج الرياح .. ولابد من أن يتحمل كل راكب مسئوليته ..

ومن هنا تناديه .. لا كزوج فقط وانما تقول له :

أى : ابن عم .. مسجلة بهذا النداء طبيعة دورها لا كرفيقة عمر .. وانما بالاضافة الى ذلك .. فهى أخته .. ومن دمه ولحمه. أى أن اهتمامها به مردود الى الرابطة الأبدية التى لا تنفصم عراها.

ويعـــنى ذلك : أن الحق تعالى .. والذى يعد محمدا صلى الله عليه وسلم ليكون رسولا .. يهيىء له فى نفس الوقت الزوجة الوفية التى ترتفع معه الى مستوى مسئوليته .. والتى تعينه على أمر الله .

* * *

والى جانب الوفاء .. فقد كان هناك أيضا قبس من الذكاء.. الذكاء الذى هداها الى أن هناك فرقا هائلا بين الملك وبين الشيطان.

فالملك طاهر .. والشيطان نجس ..

فلما كشفت راسها .. فغاب استحياء علمت انه ملك . . والا فلو كان شيطانا لبقى ..

وعندئذ نصحت الرسول بالثبات على الأمر .. ثم بشرته بأنه ملك . .

اجل بشرته بينما كان الجو كله غامضا .. مكفهرا .. ولكن خديجة المؤمنة كانت ترى الخطر بعينها .. الا أن قلبها يخترق هذه الحجب ليرى من وراء الخطر .. ذلك الفجر الطالع .

* * *

وبعـــــد :

ففى الوقت الذى كانت خديجة تسلك سبيلها الى اليقين كان محمد صلى الله عليه وسلم على غاية ما يكون اليقين .. حين قال لهـــا واثقا :

(هـــذا جبريل قد جاءنى)

وعندئذ يخنس اعـــداء الاســـلام من المستشرقين الظانين بالرسالة ظن السوء حين قالوا أن محمدا كان واهما .. ولا يدرى انه كذلك ..

لكن هذا الموقف وأمثاله خير شاهد على كذب ما يقولون . وخبث ما يضمرون .

* * *

اســـلام صـــادق :

مر بنا كيف حكت خديجة رضى الله عنها باستحالة أن يخزى الله محمدا أبدا .. وعللت هذا الحكم بماضيه المشرف فى :

صلة الرحم .. ومساعدة الضعيف .. وقـرى الضيف .. والعون على نوائب الحـــق ..

ثم ها هى ذى اليوم تعلن اسلامها بناء على التجربة العملية التى كررتها حتى وصلت الى مرفأ اليقين :

فالرسول يجلس على شقها الأيمن .. ثم يتحول الى حجرها. ثم تكشف راسها .. فلما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود .. أعلنت اسلامها .. وهكذا ينبغى أن تكون قراراتنا المصيرية : يجب أن تبنى على اليقين ..

فـــترة الوحى :

روى ابن سعد عن ابن عباس ان مدة فترة الوحى كانت أياما(٦٠) ولم تكن سنوات كما اشتهر عند بعض الباحثين .

وقد بقى صلى الله عليه وسلم هذه الفترة محزونا .

ثم نزل عليه جبريل بعد ذلك .

* * *

---

(٦٠) فتح البارى ٢٧/١

وقد ذكر ابن حجر أن انقطاع الوحى كان لحكمة الهية تعــده صلى الله عليه وسلم لمرحلة تالية يكون فيها أمضى عزما .

ومن اسباب ذلك :

(أ) ان تأخر الوحى مدة يذهب عنه ما لاقاه من روع .

(ب) تشوقه وتطلعه اليه . فلما عاد صادف قلبا مشــوقا فتمــكن .

(جـ) أن يعينه ذلك التطلع على الثبات اذا جاء بعد ذلك .

* * *

الدعوة السرية ، دعــوة العشيرة :

لمـــا كانت مكة مركز دين العرب . وكان بها الأصنام والقائمون عليها . المدافعون عنها .

فقد كانت الدعوة الى التوحيد شاقة تخوض طريقا محفوفا بالمخاطر .

لذلك . كان لابد من سريةالدعوة فى مراحلهـــا الأولى حتى لا يفاجأ اهل مكة بما يصدم مشاعرهم فيئدوها فى مهدها ..

ومن صور الحكمة دعوة الأقربين أولا قبل الأبعدين .

ذلك بأن الأقربين :

(أ) هم آله وذووه ومن ثم أعرف الناس بصدقه فيما يقول . واهل البيت ادرى بما فيه .

(ب) اذا رآهم الأجانب مسلمين كان ذلك دليلا قويا على صدقه . حيث آمن به من هو واثق بهذا الصدق .

يقول صاحب فقه السيرة د . « البوطى » :

ولا ريب أن تكتم النبى صلى الله عليه وسلم فى دعوته الى الاسلام ، خلال هذه السنوات الأولى ، لم يكن بسبب الخوف على نفسه ، فهو حينما كلف بالدعوة ونزل عليه قوله تعالى :

« يا ايها المدثر قم فانذر(٦١) .. » .

علم انه رسول الله الى الناس ، وهو لذلك كان يوقن بأن الاله الذى ابتعثه وكلفه بهذه الدعوة قادر على ان يحميه ويعصمه من الناس ، على ان الله عز وجل لو امره من أول يوم أن يصدع بالدعوة بين الناس علنا ، لما توانى عن ذلك ساعة ولو كان يتراءى له فى ذلك مصرعه .

ولكن الله عز وجل الهمه — والالهام للرسول نوع من الوحى اليه — أن يبدأ الدعوة ، فى فترتها الأولى ، بسرية وتكتم ، وأن لا يلقى بها الا من يغلب على ظنه انه سيصيخ لها ويؤمن بها ، تعليما للدعاة من بعده، وارشادا لهم الى مشروعية الأخذ بالحيطةوالأسباب

---

(٦١) سورة المدثر الآيات ١ ، ٢

الظاهرة ، وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التى ينبغى أن تتخذ من أجل الوصول الى غايات الدعوة واهدافها . على أن لا يتغلب كل ذلك على الاعتماد والاتكال على الله وحده ، وعلى أن لا يذهب الانسان فى التمسك بهذه الأسباب مذهبا يعطيها معنى التأثير والفعالية فى تصوره وتفكيره . يخدش أصل الايمان بالله تعالى ، فضلا عن انه يتنافى مع طبيعة الدعوة الى الاسلام .

ومن هنا تدرك ، أن اسلوب دعوته عليه الصلاة والسلام ، فى هذه الفترة ، كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه اماما ، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبيا .

وبناء على ذلك فانه يجوز لأصحاب الدعوة الاسلامية ، فى كل عصر أن يستعملوا المرونة فى كيفية الدعوة — من حيث التكتم والجهر، او اللين والقوة — حسبما يقتضيه الظرف وحال العصر الذى يعيشون فيه . وهى مرونة حددتها الشريعة الاسلامية ، اعتمادا على واقع سيرته صلى الله عليه وسلم ، ضمن الاشكال أو المراحل الأربع التى سبق ذكرها ، على ان يكون النظر فى كل ذلك الى مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الاسلامية .

ومن اجل هذا اجمع جمهور الفقهاء على ان المسلمين اذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب على الظن أنهم سيقتلون من غير اى نكاية فى أعدائهم ، اذا ما اجمعوا قتالهم ، فينبغى أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس ، لأن المصلحة المقابلة وهى مصلحة حفظ الدين موهومة او منفية الوقوع .

ويقر العز بن عبد السلام حرمة الخوض فى مثل هذا الجهاد قائـــلا :

« فاذا لم تحصل النكاية وجب الانهزام ، لمـــا فى الثبوت من فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وارغام أهل الاسلام ، وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة ، ليس فى طيها مصلحة » .

قلت : وتقديم مصلحة النفس هنا ، من حيث **الظاهر فقط** .

أما من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد ، فانها فى الواقـــع مصلحة دين ، اذ المصلحة الدينية تقتضى — فى مثل هذا الحال — أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكى يتقدموا ويجاهدوا فى الميادين المفتوحة الأخرى . والا فان هلاكهم يعتبر اضرارا بالدين نفســـه وفسحا للمجال أمام الكافرين ليقتحموا ما كان مسدودا أمامهم من السبل .

والخلاصة ، أنه يجب المسالمة أو الاسرار بالدعوة اذا كان الجهر أو القتال يضر بها ، ولا يجوز الاسرار فى الدعوة اذا أمكن الجهر بها وكان ذلك مفيدا ، ولا يجوز المسالمة مـــع الظالمـــين والمتربصين بها اذا توفرت أسباب القوة والدفاع عنها ،

أول الغيث :

آمنت خديجة أولا ..

ثم آمن على رضى الله عنه وهو ابن عشر سنين .

ثم أسلم مولاه وخادمه زيد بن حارثة والذى فضل البقاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على العودة مع أبيه .

ثم أسلم أبو بكر الذى كان اسلامه فتحا مبينا .. حيث اقنع بعض أشراف قريش بالدخول فى الاسلام فاستجابوا .

وكان ذلك دعما لمسيرة الدعوة التى يجىء غدها باستمرار أفضل من أمسها بما يضيفه القدر اليها من اشراف تزداد بهم قوة .

شهادة صدق :

ولقد كان من تدبير الله تعالى أن يسبق هؤلاء الى الاسلام .. ليكونوا باسلامهم شهداء صدق على أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله حقا :

ان أعظم الناس واجلهم . اذا انقلب الى بيته . كان فيه رجلا من الرجال .. وواحدا كآحاد الناس . ولقد صدق « فولتير » فى كلمته المشهورة : « ان الرجل لا يكون عظيما داخل بيته . ولا بطلا فى أسرته » .

يريد أن عظمة المرء لا يعترف بها من أقرب الناس اليه لاطلاعه على دخيلته فى مباذله . وهذا الحكم يشذ عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه . فيقول « باروت سميث » :

(ان ما قيل عن العظماء فى مباذلهم لا يصح — على الأقل — فى محمد رسول الاسلام) .

واستشهد بقول « كبن » لم يمتحن رسول من الرسل أصحابه كما امتحن محمد أصحابه .

انه قبل أن يتقدم الى الناس جميعا . تقدم الى الذين عرفوه انسانا المعرفة الكاملة . فطلب من زوجه . وغلامه . واخيه . واقرب أصدقائه اليه . واحب خلانه . ان يؤمنوا به نبيا مرسلا . فكل منهم صدق دعواه وآمن بنبوته . وان حليلة المرء اكثر الناس علما بباطن امره . ودخيلة نفسه . والصقهم به . فلا يوجد من هو اعرف منها بهناته ونقائصه . اليس اول من آمن بمحمد رسول الله زوجه الكريمة التى عاشرته خمسة عشر عاما واطلعت على دخائله فى جميع اموره . وأحاطت به علما . فلما ادعى النبوة كانت أول من صدقه(٦٢) .

بعض ما لقيه المسلمون من أذى قريش .

اتفقت كلمة المشركين على صرف المسلمين عن دينهم بكل ما ملكوا من وسائل التعذيب .

وكانت مقاومتهم تلك طبق خطة ماكرة تستهدف التعامل مع كل مسلم بما يناسبه من تهديد او وعيد :

(قال محمد بن اسحاق(٦٣) :

وكان ابو جهل الفاسق الذى يغرى بهم فى رجال من قريش :

ان سمع برجل قد اسلم له شرف ومنعة انبه وخزاه وقال :

(٦٢) البعث الاسلامى جمادى الاولى ١٤٠٥ هـ .
(٦٣) البداية والنهاية ج ٥٧/٣

تركت دين أبيك . وهو خير منك . لنسفهن حلمك . ولنفلين(٦٤) رايك .

ولنضعن شرفك .

وان كان تاجرا قال :

والله لنكسدن تجارتك . ولنهلكن مالك .

وان كان ضعيفا ضربه . واغرى به . لعنه الله وقبحه) .

عدوانهم على رسول الله :

وقد كان التركيز اولا على رسول الله صلى الله عليه وسلم. لأنه امام المسلمين .. فاذا افلحوا فى صده عن الدعوة . فقد سهل عليهم بعد ذلك اغراء آحاد المسلمين الذين يصبحون بلا قيادة تحميهم . ويجدون فيها أملهم مجسدا . وقد اتخذ ايذاؤهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم مسالك شتى منها :

١ ـ الاغراء .

٢ ـ الأسئلة المتعنتة .

٣ ـ التهديد .

٤ ـ السخرية ..

٥ ـ الاعتداء المباشر عليه .

---

(٦٤) فلى من باب رمى وقتل : اى مستنظر فيه . وفى عاقبته وحصيره .

الاغــــــراء :

ارسل اليه اشراف قومه يوما . فجاءهم راغبا فى اسلامهم . فقالوا له :(٦٥) .

يا محمد : انا قد بعثنا اليك لنعذر فيك . وانا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك :

لقد شتمت الآباء . وعبت الدين . وسفهت الأحلام . وشتمت الآلهة . وفرقت الجماعة .

وما بقى من قبيح الا وقد جئته فيما بيننا وبينك .

فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب مالا . جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا .

وان كنت انما تطلب الشرف فينا سودناك علينا(٦٦) .

وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا .

وان كان هذا الذى يأتيك بما يأتيك رئيا(٦٧) تراه قد غلب عليك . فربما كان كذلك .. بذلنا أموالنا فى طلب الطب . حـــتى نبرئك منه . أو نعذر فيك(٦٨)) .

وبالتأمل فى هذا العرض نطالع ما يلى :

---

(٦٥) راجع البداية والنهاية ج ٣/٤٨
(٦٦) جعلناك سيدنا .
(٦٧) الرئى بفتح الراء وكسرها وتشديد الياء : الجنى .
(٦٨) أى اذا لم تكف عما تفعله . فنحن معذرون فيما نفعله بك .

بمجرد أن بعث الملأ من قريش اليه صلى الله عليه وسلم نراه وقد سارع بالاجابة أملا فى أن يسلموا .

لكنه فوجىء بهم يستميلونه بصور من الاغراء لعل واحدا منها يثنيه عن المضى فى طريق الدعوة .

ولقد كان الاغراء قويا جذابا . ولكيه صلى الله عليه وسلم لا يعمل لنفسه وانما عمله كله للدعوة . وهو مستعد أن يحرم من كل متاع لا يحقق أمله فى انتشارها وهيمنتها .

وربما توقع الملأ المفتونون بالدنيا أن الرسول وشيك الوقوع فى شباكهم .. لكنه صلى الله عليه وسلم خيب آمالهم .. وقطع اطماعهم فى استمالته بقوله جوابا عن اغرائهم :

(ما بى ما تقولون . ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم . ولا الشرف فيكم . ولا الملك عليكم .

ولكن الله بعثنى اليكم رسولا . وأنزل على كتابا . وأمرنى ان أكون لكم بشيرا ونذيرا . فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم .

فان تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة .

وان تردوه على أن اصبر لأمر الله . حتى يحكم الله بينى وبينكم) .

الباطل يمضى فى تعنته :

كان المتوقع أن يسكت القوم بعد أن قطع الرسول أطماعهم .. لكنهم انتقلوا من الاغراء الى العناد عن طريق طلب الآيات .

والمعجزات . ومعنى ذلك ان الباطل لا يهادن الحق أبدا . وديدنه ان يستمر فى الشغب . والتعنت . فان اصابوا ما أملوا فبهـا .. وإلا فقد حققوا بالعبث ما يشتهون من اثارة الغبار حتى لا تخلو الساحة للحق وحده .

من اجل ذلك قالوا له — تعقيبا على جوابه الآنف — يامحمد :

(فان كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك . فقد علمت انه ليس أحد من الناس اضيق بلادا . ولا اقل مالا . ولا أشد عبئا منا.

فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هـذه الجبال التى ضيقت علينا . وليبسط لنا بلادنا . وليجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق . وليبعث لنا ما مضى من آبائنا ..) .

فلما اجابهم صلى الله عليه وسلم أن ما يقترحونه خارج عن وظيفته كرسول يبلغ ما اوحى اليه .. لجوا فى عتوهم فقـالوا عابثين :

(سل ربك ان يبعث لنا ملكا يصدقك بما تقول . ويراجعنا عنك . وتسأله فيجعل لنا جنانا وكنوزا . وقصورا . من ذهـب وفضة) .

اغـلاق باب النقاش :

وعند وصول النقاش الى هذا الحد .. حكم الحق تعـالى باغلاق بابه .

لانهم طلبوا على وجه العناد . لا على وجه الهدى والرشاد .

فلهذا لم يجابوا الى كثير مما طلبوا . ولا ما اليه رغبوا . لعلم الحق سبحانه أنهم لو عاينوا وشاهدوا ما أرادوا . لاستمروا فى طغيانهم يعمهون . ولظلوا فى غيهم وضلالهم يترددون . وذلك ما يشير اليه قوله تعالى فى كثير من الآيات الكريمة يقول سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ (٦٩)

---

(٦٩) سورة الاسراء الآيات من ٩٠ — ٩٤

وقال تعالى :

○ ــــــــــــــ ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ
بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ
مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (٧٠)

وقال سبحانه :

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ
قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ
يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾
* وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا
عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (٧١)

---

(٧٠) سورة الاسراء آية ٥٩
(٧١) سورة الانعام الآيات من ١٠٩ ـــ ١١١

وقال سبحانه :

○ ـــــــ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (٧٢)

* * *

وتبدو الرحمة الالهية فى عدم اجابتهم الى ما طلبوا .. لأن الله تعالى علم أنهم . لن يؤمنوا بالآيات المقترحة . فيهلكهم .

واذا عاد محمد صلى الله عليه وسلم حزينا أسفا حيث لم يتحقق امله فى هدايتهم .. الا ان الموقف لم يخل من بارقة امـل ان يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى .

التهـــديد :

كان ثبات الرسول على ما هو عليه مما اثار حفيظة القوم . فحض بعضهم بعضا عليه .

ثم أنهم مشوا الى ابى طالب فقالوا(٧٣) :

---

(٧٢) سورة يونس الآيات ٩٦ ــ ٩٧

(٧٣) راجع البداية والنهاية ج ٤٥/٣ وما بعدها .

يا ابا طالب : ان ابن اخيك قد سب آلهتنا . وعاب ديننا . وسفه أحلامنا . وضلل آبائنا .

فاما ان تكفه عنا . واما أن تخلى بيننا وبينه . فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه . فنكفيكه .

فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا . وردهم ردا جميلا . فانصرفوا عنه . ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه يظهر دين الله . ويدعو اليه) .

ونلاحظ هنا محاولة الملأ رفع الحصانة عن رسول الله . حتى يتمكنوا منه . ذاكرين لأبى طالب بانه — ابا طالب — على دينهم . فهو منهم . واذا عقد الاحراج لسانه . واذا منعته الشفقة من مصارحة محمد بالكف عن دعوته .. فانهم مؤدون عنه هذه المهمة الصعبة !

والا .. فلم يعودوا يطيقون هجوم الرسول عليهم وعلى آبائهم . ودينهم . ويبدو أن الحملة لم تكن ضارية بدليك أنهم اكتفوا منه بالرد الجميل . والكلمة الرفيقة ..

* * *

فلما راوا اصرار الرسول صلى الله عليه وسلم على دعوته .. ولما تأكد لهم ما يحققه من نجاح .. صعدوا الحملة . وبلغ التهديد مداه . حين لم يكتفوا باستهداف محمد وحده .. وانما ضموا اليه عمه ابا طالب نفسه .. والذى صار مع ابن أخيه جبهة معادية لهم . وهم مستعدون للتصدى لها ..

وذلك قولهم :

(يا ابا طالب : ان لك سنا وشرفا ومنزلة فينا . وانا قد استنهيناك من ابن اخيك . فلم تنهه عنا .

وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا . وتسفيه أحلامنا . وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا . أو ننازله واياك فى ذلك . حتى يهلك أحد الفريقين) .

ابو طالب حائر بين عقله وقلبه :

واحتار أبو طالب بين عقله وقلبه :

فهو باسم العقل لا يطيق عداوة قومه . ولا يقدر على فراقهم . وهو خيط فى نسيج حياتهم .

وفى نفس الوقت لا يطاوعه قلبه المتعلق بمحمد ان يسلمه اليهم هكذا لينفردوا به على مراى ومسمع منه .

وقرر ابو طالب ان يخرج من هذا التمزق بقوله للرسول :

(يا ابن اخى :

ان قومك قد جاءونى فقالوا كذا وكذا .. فابق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق) .

عندئذ ظن الرسول صلى الله عليه وسلم أن عمه قد خذله .. وانه قد استسلم لتهديد قومه .. فقرر معتمدا على ربه سبحانه — ان يحسم هو الموقف الذى لم يستطع عمه أن يحسمه فقال :

(يا عم :

والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى علـــى أن اترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته) .

ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى . ثم قام . وعندئذ ناداه عمه فقال له :

(اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت . فوالله لا أسلمنك لشىء ابـــدا) .

مقارنة بين موقفين :

عندما دعت قريش محمدا أن يجلس اليها ــ وهو ما أشرنا اليه من قبل ــ كان رده عليه الصــــلاة والسلام رفيقا حيث كان يطمع فى اسلامهم . فلم يشأ هناك أن يقطع خيط الرجاء . أما هنا فقد اختلف الموقف :

فالملأ من قريش يهددون ويتوعدون .. معرضين بما يملكون من عدد وعدة .. فكان الرد الطبيعى هنا أن ينتفض محمد بكل ما منحه الايمان من اعتزاز وثبات ليجرد هذا التهديد من فعاليته .. الى درجة أنهم لو غيروا نظام الكون .. وألبوا عليه الدنيا كلها . فلن يترك هـــذا الأمر . ولو أدى ذلك الى هلاكه .

* * *

الباطل يستسلم :

اراد الملأ من قريش ان ينســـحبوا من الميدان مهزومين .. لكنهم ارادوا ان يستروا حمرة الخجل البادية على وجوههم ازاء هذا الصمود من رجل يقف وحده .. ثم يتحداهم جميعا .. فقرروا ان يقدموا الى ابى طالب اقتراحا مستحيلا من الناحية العملية .. ولكنهم جربوه مع علمهم سلفا برفضه ليستروا فى ظله حمرة الخجل:

فقد عرضوا على ابى طالب ان يعطـــوه اعز فتى فى قريش وهو « عمارة بن الوليد » بدل محمد . ليتخذه ولدا له .. ثم ليسلم اليهم محمدا نظيره ليقتلوه !

ورفض ابو طالب بطبيعة الحال فى منطق اخاذ مقنع قائلا :

(والله لبئس ما تسومونني :

اتعطوني ابنكم اغذوه لكم . واعطيكم ابنى فتقتلونه ؟

هذا والله ما لا يكون أبدا) .

* * *

ولم يكن القوم فى حاجة الى من يقنعهم بتفاهة العرض .. ولكنها بداية النهاية .. الناطقة بعجزهم امام اصرار محمـــد .. ومن ثم راحوا يحاولون المحاولة الأخيرة :

عندما يغيب العقل :

عندما يفقد الانسان عقله فانه يلجأ الى اساليب الصبيان .. واساليب الحيوان .

يلجأ الصبيان الى السخرية من العقلاء .. ولا يسع الحيوان الا التحرش بالآخرين .

وهذا ما فعله الكافرون فى تعاملهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن اعيتهم الحيل .

(قال عروة بن الزبير : سألت ابن العاص فقلت :

اخبرنى بأشد شىء صنعه المشركون برسول الله ؟ قال :

بينما النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فى حجر الكعبة اذ اقبل عليه عقبة بن ابى معيط . فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقا شديدا . فاقبل ابو بكر رضى الله عنه حتى اخذ بمنكبه ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلموقال :

(اتقتلون رجلا ان يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم(٧٤)) .

وقال عروة ايضا :

(اجتمع اشرافهم فى الحجر يوما . فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فعل بهم .

---

(٧٤) البداية والنهاية .

.. فأقبل يمشى حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفا بالبيت فغمزوه ببعض القول . فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمضى فلمــا مر بهم الثانية غمزوه بمثلها . فعرفتها فى وجهه . فمضى فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها . فقال :

أتسمعون يا معشر قريش ؟
اما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح !!

فأخذت القوم كلمته . حتى ما منهم من رجل الا وكأنما على رأسه طائر وقع . حتى ان اشدهم عليه ليقول :

انصرف ابا القاسم راشدا فما كنت بجهول(٧٥) .

* * *

ثم انهم راوه فى اليوم التالى فوثبوا اليه وثبة رجل واحــد فأحاطوا به يقولون :

أنت الذى تقول كذا وكذا ؟

فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(نعم . أنا الذى أقول ذلك) .

* * *

وهكذا .. فى الوقت الذى يدعوهم صلى الله عليه وسلم لمــا يحييهم اذا هم يتحرشون به فى شــخص ممثلهم « ابن أبى

---

(٥٨) راجع البداية والنهاية .

معيط » الذى خنقه ارادة قتله . لولا نجدة أبى بكر الذى واجه القوم بالآية الكريمة . مشيرا الى أنهم عكسوا الآية فحاولوا قتل رجل بلا مسوغ للقتل .

بل اذا كان ولابد من قتل فالأجدر به أولئك الآثمون . المعتدون .. لا هذا الرسول الذى جاءهم بما يحييهم .

ولا ننسى الاحساس بالضعف فى قلب ابن معيط . ومن ورائه الملأ من قريش .

هذا الاحساس الذى شل يده فلم يجهز عليه .. لا سيما وعصبة الشر تشكل من ورائه خط دفاع منيع .. ولولا قوة الايمان التى شدت من أزر أبى بكر لما استطاع أن ينجيه من عصابة الشر .

* * *

ولكن الباطل لا ييأس أبدا من مناوشة الحق .. وهاهم أولاء يتحينون الفرصة ليميل بعضهم على بعض هامسا . فى حركة مسرحية يظن معها انهم يأتمرون به .. وقد ترتسم على الوجوه ابتسامة صفراء خبيثة . فى محاولات للسخرية منه صلى الله عليه وسلم . فلعل هذه الحركة مانعة له من الاستمرار فى البلاغ .

* * *

ونلاحظ اصرار القوم على حركتهم تلك الخبيثة فيما يشبه الحصار المضروب فلا فكاك .

ويفاجئهم صلى الله عليه وسلم بما لم يخطر لهم على بال قائلا :

لقد جئتكم بالذبح !!

لقد تعودوا منه الكلمة الهادئة الرقيقة .. فما هو الجديد الذى طرأ عليه فخرج به عن طبعه هذه المرة ؟

لقد ظنوا أن سكوته صلى الله عليه وسلم استسلام لهم .. وفرحوا بجمعهم القادر على السخرية بل وعلى الايذاء دون مقاومة — فأراد صلى الله عليه وسلم أن يفاجئهم بما يشبه الصدمة الكهربية .. بهذا المنطق الخشن .. حتى يفيقوا من غفلتهم ليروا أن الرجل المسالم قادر على أن ينتقم منهم . وما كان سكوته هذه المرة عن عجز . ولكنه الأمل الذى يمتد فى قلبه أن يهديهم أو يخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى .

* * *

ولقد نزلت الآيات تترى منددة بمسلك القوم .. مهددة بالمصير الرعيب الذى ينتظرهم جزاء ما قدمت أيديهم . وذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ

لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾
فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى
ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ
يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٧٦)

التنكيل بالمستضعفين :

(لو ان اهل مكة ترددوا فى تصديق محمد صلى الله عليه وسلم حتى يبحثوا امره . ويمحصوا رسالته . ويزنوا — على مهل — ما لديهم وما جاء به . لما عابهم على ذلك عاقل .

ولكنهم نفروا من الاسلام نفور المذنب من ساحة القضاء . بعد ما انكشفت جريمته . وثبتت ادانته .

وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا الاعراض المقرون بالتكذيب والتحدى . ومن حق كل رجل صدوق نبيل أن يأسف ويألم اذا القى نفسه مكذبا مهجورا . الا ان الله واساه . فأبان له بواطن هؤلاء المكذبين المتألبين

﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ
وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٧٧)

---

(٧٦) سورة المطففين الآيات من ٢٩ — ٣٦
(٧٧) فقه السيرة للغزالى ١٠٥ والآية من سورة الانعام ٣٣

ولقد كان المقصود بالتحرش برسول الله تخذيل المسلمين من ورائه حتى يفقدوا ثقتهم به . وبالتالى تهتز الدعوة الجديدة فى أنفسهم فلا تنال حظها من العناية .

فلما ثبت صلى الله عليه وسلم . وكابر تحرشات المعتدين . وانتصر عليهم . قرر المشركون تحويل الوجهة الى المستضعفين . لعلهم أن يزحزحوهم بالاضطهاد . حتى لا يستمروا فى طاعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

قامت كل قبيلة بتعذيب من اعتنق الاسلام من أبنائها .

الى جانب ما كان هناك من اعتداءات فردية بلغت النهاية فى الغلظة والقسوة وفى ذلك ما يروى أنه كان لعثمان بن عفان عم ظالم غشوم .. فلما علم باسلام عثمان قرر اضطهاده ليكسر اراداته المصممة على المضى مع الحق .. فكان يلفه فى حصير من أوراق النخيل . يدخنه من تحته .

* * *

وكان مصعب بن عمير ممن نشأوا فى النعيم .. ولما أعلن اسلامه أجاعته امه .. ثم طردته من البيت .. فذاق وبال الجوع والتشرد . فى سبيل عقيدته التى يجب أن تحيا وان مات هو فى سبيلها . الا وان رضا مصعب بهذا التقشف وهذا الضنك من بعد النعيم .. لدليل يفند المزاعم القائلة بأن المنفعة كانت من وراء اسلامه .. والا فما هى المنفعة التى حققها مصعب ؟

ولم يكن بلال باسعد حظا من أخويه : عثمان ومصعب .. فالى جانب تعذيبه بالجلوس فى حر الشمس . ثم بطرحه على ظهره

لتوضع الصخرة الكبيرة على صدره .. كان سـيده يسلمه الى الصبيان ليطوفوا به فى شـعاب مـكة .. يجرونه بحبل وضع فى عنقه !!

***

ويلاحظ أن المشركين تنادوا بالتفنن فى تعذيب هذا الرعيل الأول : فاذا كان بلال قد سـحب بالحبل من عنقه .. فقد شد « أبو فكيهة » برجله يمسحون به الأرض .

وعندما وفـد « أبو ذر » على رسول الله صـلى الله عليه وسلم . واسلم . قال له صلىالله عليه وسلم :

ارجع الى قومك فأخبرهم . حتى يأتيك أمرى .

قال : والذى نفسى بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم . فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته :

اشـهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

ثم قام القوم فضربوه حتى أضـجعوه . وأتى « العباس » فأكب عليه قال :

ويلكم . الستم تعلمون أنه من « غفار » وأن طريق تجاركم الى الشـام عليهم فأنقذه منهم .

ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه . وثاروا اليه . فأكب العباس عليه(٧٨)

***

(٧٨) البخارى . باب اسلام ابى ذر .

ومما يلفت النظر هنا أن الرسول صـــلى الله عليه وسلم لم يأمره باعلان اسلامه .

ولكن شدة ايمان الرجل .. وامتلاء قلبه بحقية الدين الجديد لم يتركا له خيارا فيما يفعل .

فما هى الا أن فاضت نفســـه اعترافا واقتنـــاعا بالدعوة الجديدة .. بل وصراخا بها على مرآى ومسمع قريش . ولقد كان يعلم سلفا وهو غريب فريد ذلك الثمن الذى سوف يدفعه ! .

الا أنه من تدبير الله تعالى أن يصرخ فيهم أبو ذر مؤكدا للقوم أن العذاب والنكال لن يوقف المد الزاحف .. وأنه ليزيد الحقيقة اشتعالا فى نفوس المؤمنين .

ولقد احس المعتدون بالصغار ازاء هـــذه الصـــور الفريدة من الاحتمال .

ولا شك أن رؤيتهم لهذا الصـــمود رغم فداحة الثمن الذى يدفعه المؤمنون أقنعهم من الداخل أنهم جميعا أضـــعف من أن يطفئوا نور الله بأفواههم .

***

وقد كان الظن أن تســـتحى النخـــوة العربية من التعرض لامرأة بالأذى .. ولـــكن الأســـد المجروح راح يتخبط على غير هدى .. فجعل للمرأة المســـلمة كفلا من هـــذا التنكيل :

كانت هناك اماء : النهدية وابنتها وأم عبيس .. فلما أسلمن وتفرغ عمر — قبل أن يسلم — لضرب أحداهن حتى اذا كلت يداه

من الضرب بلا جدوى .. توقف قائلا :

انى لم اترك الا ملالة(٨٩) !

آل ياسر :

وكان لآل ياسر النصيب الأوفى من التعذيب :

كان المشركون يخرجونهم الى الأبطح . اذا حميت الرمضاء . فيعذبونهم بحرها . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر بهم فيقول :

صبرا آل ياسر . فان موعدكم الجنة(٨٠) .

فأما امه فقتلوها . وهى تأبى الا الاسلام .

ولعلنا ندرك عمق المأساة فى عين « عمار بن ياسر » رضى الله عنه يرى امه تقتل . وهو لا يملك لها من الأمر شيئا .. حتى الرسول نفسه لا يملك لها شيئا الا الوصية بالصبر . والوعد بالجنة .

ولئن مات ابوه « ياسر » تحت وطأة العذاب .. فقد كان مصير امه جارحا كعربى وكمسلم .. لكنها المبادىء العليا تكلف أربابها أن يعيشوا لها ويموتوا فى سبيلها .

* * *

ولك أن تتصور عمق البلاء هنا :

---

(٧٩) راجع الرحيق المختوم ١٠٣ وما بعدها .
(٨٠) رواه ابن اسحاق فى السيرة (٢٠٣/١) .

ان انسانا يسمع اليوم كلمة تخدش حياءه . ليهب دفاعا عن كرامته . ومن ورائه رأى عام يسانده .

فان لم يكن فالقانون ينتقم له .

أما « عمار » فانه يرى بعينه يد الغدر تطعنها .. ويسمع بأذنيه انينها .. ثم لا يملك لها شيئا .

بل ولا يملك الرسول الا الدعاء .. ان البلاء حينئذ اكبر من ان يتحمله انسان .. ولكن « عمارا » يغالب المحنة .. ويخرج منها بعقيدته .. ولئن ودع أباه .. وودع أمه .. فان فى بقاء عقيدته عزاء وسلوى .

* * *

اسلام حمزة :

عندما ينتفش الباطل مزهوا بما يملك من قوة وحيلة .. فان الضربة تأتيه من حيث لا يحتسب .. فاذا هو زاهق ممرغ فى التراب .

وهذا ما حدث عندما مر ابو جهل برسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم عند « الصفا » فشتمه . فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فانصرف عنه .

وقد كان « حمزة بن عبد المطلب » على موعد مع الاسلام .. وذلك انه سمع بما فعل أبو جهل برسول الله . فدخل المسجد . فلما رأى ابا جهل ضربه بالقوس ضربة شجت رأسه .. وسال الدم من طاغية قريش .. معلنا هزيمته .. وليس هذا فقط ..

بل كان هناك ما هو اشد على أبى جهل من هـــذه الضربة التى شرخت كرامته قبل أن تشق رأسه . وهو اعلان حمزة فى نفس الموقف :

أتشتمه وأنا على دينه . اقول ما يقول .

أجل سكت أبو جهل . وحق له أن يسكت (لأن الصدمة فى حال النشـــوة تذهب بالرأى . وتوجب الدهشة والسبات . بحكم الطبيعة(٨١)) .

واسلم حمزة . وكان اسلامه فاتحة خير وبركة .. وبارقة أمل عريض فى نصر الله والفتح . ومن تدبير القدر الأعلى أن يسلم حمزة .. ليكون بعد قليل فىدار الأرقم .. وليكون فى استقبال عمر حين توجه اليها ارادة النيل من رسول الله .. ولعل وجود حمزة بالدار حينئذ قوة تصدت لعمر .. ولعلها أزاحت من نفسه آخر حجاب مانع من الهدى .. فى لحظة مخاض جاء من بعدها الفرج.. فأسلم عمر بن الخطاب .

* * *

(٨١) محمد عبده ــ المسلمون والاسلام .

اسماء الفتيان الذين أسلموا فى العهد السرى :

رغم ما كان من ارهاب قريش . وتنكيلهم بالمستضعفين .. الا أن مجموعة من الشباب أعلنوا اسلامهم مع ما ينتظرهم من ضنك العيش .. والموت أحيانا :

١ ــ على بن أبى طالب .	أول الفتيان اسلاما : أسلم وهو ابن ثمان سنوات .
٢ ــ الزبير بن العوام	أسلم وهو ابن ثمان من السنين . استشهد فى واقعة الجمل سنة ٣٦ وله ٦٤ سنة .
٣ ــ طلحة بن عبيد الله	أسلم وهو ابن اثنتى عشر سنة ، استشهد سنة ٣٦ وله ٦٧ سنة .
٤ ــ الأرقم بن أبى الأرقم	أسلم وهو ابن اثنتى عشر ، ومات سنة ٥٥ من الهجرة .
٥ عبد الله بن مسعود	أسلم وقد قارب البلوغ ، ومات سنة اثنى وثلاثين منالهجرة.
٦ ــ سعيد بن زيد	أسلم وهو دون العشرين ، ومات سنة اثنتين وخمسين من الهجرة .
٧ ــ سعد بن أبى وقاص	أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة ومات سنة أربع وخمسين من الهجرة .

٨ ــ مسعود بن ربيعة	اسلم وهو ابن سبع عشرة سنة ومات سنة ثلاثين من الهجرة.
٩ ــ جعفر بن ابى طالب	اسلم وهو ابن ثمانى عشرة سنة ، استشهد بموته .
١٠ ــ سهيب الرومى	اسلم وهو دون العشرين ، ومات سنة ثمان وثلاثين من الهجرة .
١١ ــ زيد بن حارثة	اسلم فى حدود العشرين ومات وهو ابن ٥٥ سنة فى غزوة مؤتة .
١٢ ــ عثمان بن عفان	اسلم فى حدود العشرين، استشهد سنة ٣٥هـ وسنه ٨٢ سنة.
١٣ ــ طليب بن عمير	اسلم فى حدود العشرين، استشهد فى واقعة اجنادين .
١٤ ــ خباب بن الأرت	اسلم فى حدود العشرين ومات وعمره ثلاث وستون سنة (مات سنة سبعة وثلاثين).
١٥ ــ عامر بن فهيرة	أسلم ابن ثلاث وعشرين سنة .
١٦ ــ مصعب بن عمير	اسلم وهو ابن اربع وعشرين سنة . استشهد فى أحد .

١٧ ــ المقداد بن الأسود	أسلم وهو ابن أربع وعشرين سنة . ومات سنة ثلاث وثلاثين من الهجرة .
١٨ ــ عبد الله بن جحش	أسلم وهو ابن خمس وعشرين سنة ، ومات وهو ابن نيف وأربعين سنة .
١٩ ــ عمر بن الخطاب	أسلم وهو ابن ست وعشرون سنة .
٢٠ ــ ابو عبيدة بن الجراح	أسلم وهو ابن سبع وعشرين سنة ، ومات وكانت سنه عند موته ثمان وخمسين سنة .
٢١ ــ عتبه بن غزوان	أسلم وهو ابن سبع وعشرين سنة ومات وسنه سبع وخمسون سنة .
٢٢ ــ ابو حذيفة بن عتبة	أسلم فى حدود الثلاثين ، استشهد فى وقعة اليمامة ، وسنه ست وخمسون سنة .
٢٣ ــ بلال بن رباح	اسلم فى حدود الثلاثين ، ومات سنة عشرين من الهجرة .
٢٤ ــ خالد بن سعيد	أسلم فى حدود الثلاثين ، واستشهد يوم مرج الصفر.

٢٥ ـ عمرو بن سعيد	أسلم فى حدود الثلاثين واستشهد يوم مرج الصفر.
٢٦ ـ عياش بن أبى ربيعة	أسلم فى حدود الثلاثين ومات شهيدا سنة خمس عشرة من الهجرة .
٢٧ ـ عامر بن ربيعة	أسلم فى حدود الثلاثين ومات سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة .
٢٨ ـ نعيم بن عبد الله	أسلم فى حدود الثلاثين ومات بمؤتة
٢٩ ـ عثمان بن مظعون	أسلم فى حدود الثلاثين ومات فى السنة الثانية من الهجرة.
٣٠ ـ عبد الله بن مظعون	أسلم ابن سبع عشرة سنة ومات سنة ثلاثين من الهجرة .
٣١ ـ قدامى بن مظعون	أسلم ابن تسع عشرة سنة، ومات سنة ستة وثلاثين من الهجرة .
٣٢ ـ السائب بن مظعون	أسلم فى حدود العشر من السنين واستشهد فى واقعة اليمامة.
٣٣ ـ ابو سلمة بن عبدالأسد	أسلم فى حدود الثلاثين ومات فى السنة الرابعة من الهجرة.

٣٤	عبد الرحمن بن عوف	اسلم فى حدود الثلاثين ومات فى سنة احدى وثلاثين من الهجرة .
٣٥	عمار بن ياسر	اسلم بين الثلاثين والأربعين واستشهد فى واقعة صفين سنة ٣٧ من الهجرة .
٣٦	ابو بكر الصديق	اسلم وهو (٣٧ سنة) ومات سنة ثلاثة عشرة من الهجرة.
٣٧	حمزة بن عبد المطلب	أسلم وهو ابن (٤٢ سنة) واسنشهد فى غزوة أحد .
٣٨	عبيده بن الحارث	اسلم وهو بن خمسين سنة ومات بعد عودته من بدر .
٣٩	عامر بن ابى وقاص	مات بالشام فى خلافة عمر واسلم بعد عشرة رجال .
٤٠	السائل بن عثمان بن مظعون	استشهد باليمامة وسنه بضع وثلاثون سنة .

عن « مجلة الوعى الاسلامى العدد ٧٧ » .

حكمة الهجرة :

الانسان عدو ما يجهل .

يألف حياته اليومية الدارجة .. وكل محاولة لنقله منها وتمرده عليها يقاومها بشدة . واذا استكان فرغم أنفه .

انه يتصور المجهول غولا يتربص به . وتسول له نفسه بما قد يخبئه ذلك المجهول من شرور لا وجود لها الا فى خياله هو .

من اجل ذلك يستنهض الاسـلام همة المسلم حتى تستيقظ وتقتحم هذا المجهول . الذى سوف يسفر فى النهاية عن منافع جمة تتعلق بالفرد وتتعلق بالجماعة .

وذلك سر من أسرار قوله تعالى :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ (٨٢).

ومعنى ذلك ان الهجرة اذا كانت خروجا على مألوف المسلم.. فان فيها فوائد كثيرة بما يحققه المهاجر المكافح من مكاسب يرغم بها أنوف أعدائه .

وعلى هذا الأساس جاءت الهجرة النبوية :

يقول صاحب المنار(٨٣) .

شرعت الهجرة لثلاثة أسباب أو حكم .. اثنان منها يتعلقان بالأفراد . والثالث يتعلق بالجماعة :

---

(٨٢) سورة النساء آية ١٠٠

(٨٣) تفسير سورة النساء ص ٢٩٥ بتصرف .

اما الأول : فهو أنه لا يجوز لمسلم أن يقيم فى بلد يكون فيها ذليلا مضطهدا فى حريته الدينية والشخصية فكل مسلم يكون فى مكان يفتن فيه عن دينـــه . أو يكون ممنـــوعا من اقامته فيه كما يعتقد . يجب عليه أن يهاجر منه الى حيث يكون حرا فى تصرفاته . واقامة دينه . والا كانت اقامته معصية يترتب عليها ما لا يحصى من المعاصى .

والاجاز له الاقامة .

وأما الثانى : فهو تلقى الدين والتفقه فيه . فلا يجوز لمن أسلم فى مكان ليس فيه علماء يعرفون أحكام الدين ان يقيم فيه . بل يجب أن يهاجر الى حيث يتلقى الدين والعلم .

واما الثالث المتعلق بجماعة المسلمين . فهو انه يجب على مجموع المسلمين أن تكون لهم جماعة أو دولة قوية تنشر دعوة الاسلام . وتقيم أحكامه وحدوده . وتحفظ بيضته . وتحمى دعاته وأهله من بغى الباغين . وعدوان العادين وظلم الظالمين .

فاذا كانت هذه الجماعة أو الدولة ضعيفة يخشى عليها من اغارة الأعداء . وجب على المسلمين أينما كانوا أن يشدوا ازرها حتى تقوى وتقوم بما يجب عليها .

فاذا توقف ذلك على هجرة البعيد اليهـــا وجب عليه ذلك وجوبا قطعيا لا هوادة فيه . والا كان راضـــيا بضعفها . معينا لأعداء الاسلام على ابطال دعوته . وخفض كلمته .

الهجرة إلى الحبشة

تمهيـــد :

فى السنة الخامسة للهجرة اشـــتدت وطأة المشركين على المسلمين .وكانما صار المستضعفون مسلاة فى يد الطغاة يلهون بها. واذا وجد الرسول صلى الله عليه وسلم من يحميه من الكيد .. فانه لم يكن يملك لهؤلاء المستضعفين الا الدعاء بالخلاص.والبشارة بالجنة جزاء صبرهم الجميل .

وتبقى الدعوة فى مكة متعثرة محاصرة لا أمل حينئذ فى احرازها نصرا يخرج بها من هـــذا العذاب المضروب عليها .. فكان لابد من الهجرة الى أن يأذن الله تعالى بعودة الدعوة مرة أخرى متوجة بأكاليل النصر المبين .

* * *

الاعداد للهجرة :

وقبل الشروع فى الهجرة كان هناك اعداد الهى للمسلمين.. ليتقبلوا فكرة الهجرة اولا .. ثم ليصبروا على مشاقها ثانيا :

فقد نزلت سورة الكهف مفصلة هجرة الفتية الذين هاجروا بعقيدتهم من الوثنية المتحكمة .. مخافة أن يفتنهم قومهم عن دينهم.

يقول سبحانه :

﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ (٨٤)

ثم ما كان من قصة الخضر مع موسى عليه الاسلام .. وما تشير اليه من غلبة الشر أحيانا فى ظاهر الأمر .. الا ان الامور لا تجرى على الظاهر .. والعبرة بالخواتيم .

واذن .. فعلى المسلمين المضطهدين فى مكة ان يعوا هذه الدروس .. موقنين بأن الهجرة لو فرضت عليهم قريبا .. فليسوا على الطريق وحدهم .. وانما سبقهم اليها أصحاب الكهف .. الذين هاجروا فى سبيل الله .. فنجوا بعقيدتهم من كيد الكائدين .

---

(٨٤) سورة الكهف آية ١٦

وان الرياح لم تكن على ما يشـــتهى المشركون .. بل كان النصر فى النهاية حليف المؤمنين .

وكما تشير قصة « ذى القرنين » ايضا الى ان الله تعالى لا يترك الظالمين يتحكمون فى مصير المؤمنين دائما .. ولكن اقتضت رحمته أن يبعث اليهم من ينقذهم .. ثم يورث الأرض للصالحين بعد أن يدمر ما كان يصنع الظالمون .

ثم نزلت سورة الزمر وفيها :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ (٨٥)

لماذا كانت الهجرة الى الحبشة ؟ :

كانت الحبشـــة أرض صـــدق ووفاء .. تحسن استقبال الغرباء .. وسبب ذلك وجود ملك راشد واسع الأفق . يصرف أمورها بالحكمة والعدل .. فلا يظلم عنده أحد .

* * *

(٨٥) سورة الزمر آية ١٠

وقبل أن نستمع الى قصة هـــذه الهجرة من ام سلمة رضى الله عنها نشـــير الى انه كان من بين المهاجرين عثمان بن عفان وزوجته « رقية » بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قال فيهما رسول الله :

(انهما أول بيت هاجر فى ســـبيل الله بعد ابراهيم ولوط عليهما السلام(٨٦)) .

وهذا يعنى أن أحدا من الصحابة لم يكن ينجو من الاضطهاد . حتى الرسول صـــلى الله عليه وسلم وآل بيته .

وان الهجرة كانت قدر الجميع بلا استثناء .

من مقاصد الهجرة الى الحبشة :

وقد لخص المرحوم الشيخ محمد الصادق عرجون مقاصد هذه الهجرة فى أمور منها(٨٧) :

١ ــ البعد عن مواطن الفتنة فى الدين للذين لا يستطيعون رد الاعتداء عليهم .

٢ ــ البعد عن كل ما يثير العراقيل أمام الدعوة .. وقد كان بعض الصحابة لا يطيق صبرا على ما يلاقيه من اذى مثل سعد بن أبى وقاص الذى ضرب مشركا فشـــج راسه فى ظروف لا تمكن

(٨٦) مختصر سيرة الرسول للشيخ النجدى ٩ : ٩٣ عن الرحيق المختوم .
(٨٧) محمد رسول الله ١٠ وما بعدها بتصرف .

المسلمين من حماية سعد رضى الله عنه وأمثاله .. والأوفق بالدعوة أن تهاجر الى أن تكتمل العدة .

٣ ـ تخفيف الأزمات النفسية التى كان يحس بها رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما شاهد مسلما يهان أو يعذب . وحتى يتفرغ للدعوة فى ظروف نفسية مواتية .

واذن (فكان من أحكم التدبير . وحكمة السياسة أن يفتح صلى الله عليه وسلم لأصحابه باب الهجرة حتى يجدوا لأنفسهم متنفسا فى حركاتهم وهم آمنون على أنفسهم . يعبدون ربهم وهم مطمئنون . لا يهيجهم أمر . ولا يفزعهم شىء .

ولا شك ان هذا لون من ألوان السياسة فى تبليغ الدعوة :

بدأ هامسا . فلما حرك تحرك معبرا أصدق تعبير عن هداية الاسلام فى أعظم محفل من محافل الحوار . الذى هيأ الله له أسبابه وعوامله ودوافعه(٨٨)) .

قصة الهجرة الى الحبشة :

قال ابن اسحاق : حدثنى محمد بن مسلم الزهرى عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى عن أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(٨٨) المرجع السابق ص ١٣

لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار ، النجاشى أمننا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشـــا ائتمروا بينهم أن يبعثوا الى النجاشى فينا رجلين منهم جلدين وأن يهدوا النجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم يعنى الجلد فجمعوا له ادما كثيرا ولم يتركوا من بطارقته بطريقا الا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص وكانا لم يسلما بعد وامروهما بأمرهم وقالوا لهما : ادفعوا الى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فيهم ثم قدما الى النجاشى هداياه ثم سلاه أن يسلمهم اليكما قبل أن يكلمهم .

قالت أم سلمة : فخرجا حتى قدما الى النجاشى ونحن عنده بخير دار عند خير جار فلم يبق من بطارقته بطريق الا دفعا اليه هديته قبل أن يكلما النجاشى وقالا لكل بطريق منهم : انه قد ضوى جاء الى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم وقـــد بعثنا الى الملك فيهم أشرف قومهم ليردهم اليهم فاذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم الينا ولا يكلمهم فان قومهم أعلى بهم عينا يعرفون عنهم ما لا يعرفون هم وأعلم بما عابوا عليهم .

فقالوا لهما أى البطارقة : نعم قالت أم سلمة ثم انهما قدما هداياهما الى النجاشى فقبلها منهما ثم كلماه فقالا له .

أيها الملك انه قد ضوى الى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن

ولا أنت وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم اليهم فهم اعلى بهم عينا واعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت أم سلمة ولم يكن شيء ابغض الى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص من يسمع كلام المهاجرين . النجاشى .

فقالت بطارقته حوله : صدقا ابها الملك قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم اليهما فليرداهم الى بلادهم وقومهم .

قالت أم سلمة غضب النجاشى ثم قال لا والله اذن لا أسلمهم اليهما ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم فان كانوا كما يقولان أسلمهم اليهما ورددتهم الى قومهم وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاورونى ..

قالت أم سلمة : ثم أرسل أى النجاشى الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا اى الصحابة ثم قال بعضهم لبعض :

ما تقولون للرجل اذا جئتموه ؟

قالوا : نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائنا فى ذلك ما هو كائن .

فلما جاءوا ، وقد دعا النجاشى أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فقالوا لهم .

ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه البلاد ؟

قالت أم سلمة : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب (رضوان الله عليه) فقال له أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجـــارة والأوثان وامرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجـــوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وامرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

قالت أم سلمة : فعدد عليه ـــ أى جعفر ـــ أمور الاســـلام وقال جعفر فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من اللـــه فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا واحللنا ما أحل لنا فعد علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وان نستحل ما كنا نستحل من الجنائب فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جـــوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .

قالت أم سلمة : فقـــال له النجاشى : هل معك مما جاء به « أى النبى » عن الله من شىء ؟

قالت أم سلمة : فقال له جعفر : نعم .

فقال له النجاشى : فاقرأه على .

قالت أم سلمة : فقرأ عليه صدرا من سورة مريم .

قالت : فبكى والله النجاشي حتى ابتلت لحيته « اى ابتلت بدموعه » وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم .

ثم قال له النجاشى : ان هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ووجه النجاشى حديثه الى رسولى قريش قائلا : انطلقا فلا والله لا أسلمهم اليكما ، ولا يكادون .

قالت أم سلمة : فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لأتينه غدا لأحدثه عنهم بما استأصل به خصراءهم يعنى شجرة أصولهم .

قالت : فقال له عبد الله بن ابى ربيعة وكان أتقى الرجلين فينا : لا تفعل فان لهم أرحاما وان كانوا قد خالفونا قال عمرو : والله لأخبرنه انهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد «يعنى عبد الله».

قالت : ثم غدا عليه من الغد فقال له : ايها الملك انهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما فأرسل اليهم فسلهم عما يقولون فيه.
قالت أم سلمة : فأرسل اليهم ليسألهم عنه :

قالت : ولم ينزل بنا مثلها قط . فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض :

ماذا تقولون فى عيسى بن مريم اذا سألكم عنه ؟

قالوا نقول والله ما قال الله ، وما جاءنا به نبينا كائنا فى ذلك ما هو كائن .

قالت ام سلمة : فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟

فقال جعفر بن ابى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم يقول :

هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول .

قالت ام سلمة : فضرب النجاشى بيده الى الأرض فأخذ منها عودا ثم قال :

والله ما عدا « يعنى تجاوز » عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود .

قالت ام سلمة : فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال .

فقال النجاشى : وان نخرتم والله .. ووجه حديثه الى المهاجرين قائلا اذهبوا فأنتم شيوم « آمنون » بأرضى من سبكم غرم ثم قال : من سبكم غرم ثم قال : من سبكم غرم ما أحب أن لى دبرا « يمنى جبلا » من ذهب وانى أذيت رجلا منكم .

قال ابن هشام : ويقال دبرا من ذهب ويقال : فأنتم شيوم . والدبر (بلسان الحبشة) : الجبل . ردوا عليهما « أى على رسولى

قريش » هداياهما فلا حاجة لى بها فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فأخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه قالت : فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاءا به واقمنا عنده بخير دار مع خير جار .

ومؤامرة على النجاشى :

قالت أم سلمة : فوالله انا لعلى ذلك اذا نزل به « اى بالنجاشى » رجل من الحبشة ينازعه فى ملكه .

قالت : فوالله ما علمنا حزنا حزنا قط كان اشد علينا من حزن حزناه عند ذلك تخوفا ان يظهر — أى ينتصر — ذلك الرجل على النجاشى ، فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه .

قالت : وسار النجاشى وبينهما عرض النيل .

قالت : فقال اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل من رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ثم يأتينا بالخبر ؟

قالت : فقال الزبير بن العوام : انا فقالوا : فأنت . وكان من أحدث القوم سنا .

قالت : فنفخوا له قربة فجعلها فى صدره ثم سبح عليها حتى خرج الى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم ثم انطلق حتى حضرهم.

قالت : فدعونا الله تعالى للنجاشى بالظهور على عدوه والتمكين له فى بلاده .

قالت : فوالله ان لعلى ذلك متوقعون لمـــا هو كائن اذ طلع الزبير وهو يسعى فلمع بثوبه وهو يقول : الا أبشروا فقـــد ظفر النجاشى وأهلك الله عدوه ومكن له فى بلاده .

قالت أم سلمة : فوالله ما علمتنا فرحنا فرحة قط مثلها ورجع النجاشى ، وقد أهلك الله عدوه ومكن له فى بلاده واستوثق عليه أمر الحبشة فكنا عنده فى خير منزل حتى قدمنا على رسول اللـــه صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ..

* * *

والقصة على هذا النحو حافلة بالدروس والعبر :

ان قريشـا كانت تعلم كيف تأكل الكتف .. وتعلم من يأكل هـــذه الكتف !

ولذلك فقد اعـــدت للأمر عدته :

١ ــ اختارت أولا داهيتـــين من دواهى العـــرب .. هما عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص الذى قال عن نفسه :

(ما دخلت فى شىء قط . الا خرجت منه) .

٢ ــ حمل المبعوثان من الهدايا أصنافا لاغراء الحاشية القريبة من الملك والمؤثرة فى اتجاهاته .

٣ ــ تكلمت الهـــدايا فعلا حين اشارت الحاشية بضرورة تسليم المهاجرين اليهما .

٤ ــ ولولا يقظــة الملك وحكمته لغيرت الرشوة مجــرى التاريخ ..

٥ ــ وحين حاول عمرو أن يطلق آخر سهم فى جعبته طاش السهم . وانكشفت اللعبة عن هزيمة ساحقة لقريش .

من بركات الهجــرة الى الحبشة :

عاد المهاجرون الى المدينة منتصرين :

لقد نضجت حقيقة الايمان فى قلوبهم بهذه الأحداث العظام . التى مارسوها . وتبين لهم أن الله تعالى هو الذى يدبر للدعوة . ويمهد لها السبيل الى القلوب . ويسخر لهذا الدين من ينصره .

ولقد كان من بركات هذه الهجرة أن جاء مع جعفر بن أبى طالب بضعة وثلاثون رجلا من نصارى الحبشة .. متأثرين بمــا رأوا وما سمعوا من مهاجرى الحبشــة . جاءوا ليروا ويسمعوا على الطبيعة مصداق ما سمعوه ورأوه من المسلمين فى بلادهم . فلما جلسوا اليه صلى الله عليه وسلم . أعلنوا اسلامهم حــين مست شغاف قلوبهم بركات النبوة .

***

وكان رد الفعل عنيفا لدى المشركين الذين فوجئوا باســلام الوفد الحبشى .. وهى نتيجة لم تخطر لهم على بال .

وها هو ذا أبو جهل يعنفهم قائلا :

ما رأينا ركبا احمق منكم : ارسلكم قومكم تعلمون خبر هـذا الرجل . فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم . وصدقتموه فيما قال ؟ . فقالوا :

سلام عليكم لا نجاهلكم . لنا ما نحن عليه . ولكم ما انتم عليه(٨٩) .

وقد نزل فى شأنهم قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾
وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ
إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم
مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ
وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى
ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (٩٠)

* * *

(٨٩) راجع تفسير ابن كثير والقرطبى .
(٩٠) سورة القصص الآيات من ٥٢ ــ ٥٥

المفارقة العجيبة :

اطارت المفاجأة صواب ابى جهل فرمى الوفد الحبشى بدائه هو ! وهو الحمق ! ذلك بأن خطته مع قومه جاءت بنتائج عكسية !

لقد كانوا يتصورون ان عمرو بن العاص وزميله قادران على العودة بالغلمان الآبقين بما عرف عنهما من حنكة ودهاء .. بعد اقناع النجاشى بما يزعمونه ..

وعاد المسلمون فعلا .. بعدما وقف النجاشى الى جانبهم وتهيأت الظروف للاستمرار فى الدعوة ..

عادوا منتصرين .. ومعهم من الحبشة وفــد هو فى نفس الوقت برهان الهى يؤكد انتصار الدعوة علي اعدائها . وان مكر قريش الى زوال .

وقد كان النجاشى يدين بالنصرانية .. وقيل انه مضى فترة شبابه باليمين منفيا . فعرف لسان العرب . ودرس احوالهم . فلما رد الله اليه ملكه . جعل من شكره لله تعالى اكرام هــؤلاء العرب المهاجرين المسلمين .

* * *

اســلام عمــر :

بعد هذا الانتصار الخارجى للدعوة .. بدات تباشير النصر على الجبهة الداخلية .. باسلام عمر رضى الله عنه . والذى كان

دخوله الاسلام فتحا مبينا قويت به شوكة المسلمين . بقدر ما كان ضربة موجعة للكافرين .. ولا يهز الشجرة الا فرع منها .

ولقد اهتزت الشجرة فعلا .. وبدأ ذلك واضحا ليلة الهجرة حين وقف ابن الخطاب واثقا بنفسه مهددا كل من يعترض طريقه.. فكان مع المسلمين على موعد مهد فيه السبيل الى انطلاقهم بروح معنوية ارتفع بها عمر بن الخطاب .. الذى انحاز الى الحق بنفس القوة التى كان يقف بها الى جانب الباطل ..

دروس من الهجـــرة :

غريزة حب الوطن واحـــدة من الغرائز الناشبة فى كيـــان الانســان .. وعندما أراد فرعون استنفار قومه لمواجهة موسى عليه السلام .. هز فيهم غريزة حب الوطن ، لتنهض بهم ضد من يريد حرمانهم من مسترداد احلامهم .. وذلك فى قوله عز وجل :

○ ـــــــ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٩١)

واذا كان حب البقاء فطرة فى طبيعة الانسان .. فان حب الوطن أعمق جذورا وأوسع مدى ..

وطنى : لو شغلت بالخـــلد عنه
نازعتنى الـــيه فى الخــــلد نفسى

---

(٩١) سورة الشعراء الآيتان ٣٤ ـــ ٣٥

ولكن لماذا يحب الناس اوطانهم ؟ يجيب الشاعر :

وحبب أوطـــان الرجال اليهمـــو
مآرب قضاها الشباب هنالـــكا

انه مصدر الحياة الذى يشبع الحاجات .. ويغزو الجسوم والأرواح .. والتى تصبح بعد ذلك دينا واجب الوفاء :

وللأوطـــان فى دم كـــل حـــــر
يـــد سلفت . ودين مستحـــق

ومهما يلاقى المرء من عناء واسى على ارضه .. ومن اهله .. فان ذلك لا يخـــدش الولاء له ابدا :

بـــلادى وان جارت على عزيزة
واهـــلى وان ضنوا على كرام

ومن هنا يظل الحنين الى الوطن مشتعلا وان تناءت الديار واشتط المزار :

كم منزل فى الأرض يألفــــه الفتى
وحنينــــــه أبـــدا لأول مـــــنزل

وطن الـــروح :

واذا كان للوطن بمفهومه القومى هذه المنزلة .. فان وطن الروح أعز وابقى !! واذا اصطرعت فى النفس محبة المكان .. ومسئولية الايمان .. فلا خيار للمسلم ولا مفر من ركوب الأهوال ومقارعة الرجال .. ولن يتردد ابدا فى هجرة وطنه انتصارا لمبادئه

التى هى حياته ، ولقد كانت هذه واحدة من أينع الفضائل التى أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بها ..

وأنت خبير بصحابى أعزل .. وحيد .. يخرج من بيته مهاجرا الى الله .. وهو يعلم يقينا أنه قد يدفع حياته ثمنا لقراره.. ومع ذلك يمضى .. لا يلوى على شىء ، ويمضى سعيدا قرير العين.. وهو فى معمعان خطر لا يملك له دفعا ! بل وتصل السعادة حدا يبكى فيه المؤمن هذا من شدة الفرح !!

وكذلك فعل أبو بكر رضى الله عنه ، فعندما أخبره صلى الله عليه وسلم — كما ذكر ابن اسحاق :

(ان الله أذن لى بالخروج والهجرة . قال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم » قالت عائشة : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم . أن أحدا يبكى من الفرح . حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكى) !!

وعندما حكى القرآن الكريم عن الرسول قوله :

(يارب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا) .

كان ذلك يعنى شكواه من هجران القرآن .. ذلك الوطن الروحى .. وخلود القوم الى التراب .. الى الأرض .. مستقرا ومقاما .. وضرورة العودة الى وطن الروح .. لتزدهر المبادىء.. وتكون الكلمة للحق .. والولاء للدين فوق كل وشيجة أرضية ..

* * *

الهجرة .. والامتحان العسير :

من اجل ذلك كانت الهجرة امتحانا عسيرا لأقدار الرجال .. وترجمانا عمليا يثبت فيه المسلم أنه نجح فى الاختبار « العملى » بعد نجاحه فى الاختبار « النظرى » لأن حب الوطن فطرة كما رايت فى مستهل حديثنا .. واذن .. فالذين ينتصرون على هذه الفطرة ايثارا لوطن الروح أن يبقى ويزدهر .. أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، يقول الحق سبحانه :

○ ــــــــــــ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨ ﴾ (٩٢)

○ ــــ ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ ﴾ (٩٣)

○ ــــــ ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ ﴾ (٩٤)

والذين يتقاعسون أمام الظلم .. ثم رضوا ان يكونوا مع الخوالف انما يحكمون على وجودهم الأدبى بالاعدام ..

---

(٩٢) سورة البقرة آية ٢١٨
(٩٣) سورة آل عمران آية ١٩٥
(٩٤) سورة النحل آية ٤١

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ
قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ
وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ
مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ (٩٥)

وقد ارتفع الصحابة الى قمة التضحية بهجرتهم تلك فى أحلك الظروف .. رجال أخلصوا لله طواياهم ، وترفعت عن المآرب هممهم ، وزهدوا عن المتاع المبذول ، والأمان المتاح ، واستهوتهم المثل العليا وحدها ، فى عالم عج بالصم والبكم ، وربطوا مستقبلهم بمستقبل الرسالة المبرأة التى اعتنقوها وتبعوا صاحبها المتجرد المكافح ، وهو لا ينى يقول :

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ
ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (٩٦)

ان المهاجرين الأولين أثبتوا أن الايمان الناضج يحيل البشر الى خلائق تباهى الملائكة سناء ونضارة ، ان المسلمين — باذن رسول الله صلى الله عليه وسلم هرعوا من مكة وغيرها الى « يثرب » يحدوهم اليقين .. وترفع رعوسهم الثقة ، فليست

---

(٩٥) سورة النساء آية ٩٧
(٩٦) سورة يوسف آية ١٠٨

الهجرة انتقال موظف من بلد قريب الى بلد ناء ، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة الى أرض مخصبة ، انها اكراه رجل آمن فى سربه ، ممتد الجذور فى مكانه على اهدار مصالحه ، والتضحية بأمواله والنجاة بشخصه فحسب ، واشعاره — وهى يصفى مركزه — بأنه مستباح منهوب ، قد يهلك فى أوائل الطريق او نهايتها ، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم ، لا يدرى ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان ..

(ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه لقيل : مغامر طياش .. فكيف وهو ينطلق فى أرض الله الواسعة ، يحمل أهله وولده ، وهو بذلك رضى الضمير ، مطمئن القلب بالايمان) .

واذ يستجيب المهاجر لمغارم الايمان الى حد يترك امرأته وولده فى مكة .. أو يتنازل عن كل ما ملكت يداه راضيا .. فان الأنصار كانوا ايضا عند حسن الظن بهم ايثارا وصل الى حد أن يعرض أحدهم تطليق زوجته ليبنى بها أخوه المهاجر !! وذلك هو الايثار المذكور فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٩٧)

---

(٩٧) سورة الحشر آية ٩

(أ) انهم يحبون من هاجر اليهم .

(ب) ولا يحسون بشيء من المرارة أو الحرج من رزق ساقه الله اليهم .

(جـ) بل ويؤثرونهم على أنفسهم بما يملكون .

(د) ويؤثرونهم ولو اشتدت حاجتهم اليه .

وبهذه الانتصارات المتلاحقة على النفس صاروا عنوان الايثار .. ونجوا به من الشح القاتل لمواهب الانسان .. وتوجهم الله بتاج الفلاح .. فصاروا ابدا عنوان الخصب والنماء ..

* * *

معية الله :

وعندما تصل علاقة الجند بالقائد الى هذا الحد .. ويحدث التلاحم بين عناصر الأمة ، لتكون صفا واحدا وراء قائدها المطاع .. فان معية الله تعالى تصحب هذا الموكب المبارك .. وهذا ما حدث بالفعل .. حين نصر الله نبيه يوم الهجرة فى وقت لم يكن للنصر ورود فى خيال أحد ..

وهذا هو الدرس المستفاد .. والذى يجب أن تستوعبه أمتنا اليوم ، فعندما تدفع الأمة ثمن النصر من دمائها .. فانها بالدم المراق تستنزله من السماء .. وفى قصة ابراهيم عليه السلام شاهد على ذلك ، فعندما وصل الوالد وابنه الى مرحلة الاستسلام لأمر الله تعالى .. جاءهما نصر الله :

○ ـــــــ ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ
أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾
وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (٩٨)

* * *

قيادة واعــية :

ولا ننسى جهد الرسول صلى الله عليه وسلم هنا ، وعليه المدار فى استنزال النصر المأمول :

(أ) فقد أحسن اختيار المكان والزمان المناسبين لتنفيذ الخطة .

(ب) وضع المسئوليات فى أعناق القادرين على الوفاء بتبعاتها .

(جـ) ووضع أقرباءه وخلصاءه فى مواجهة الخطر .. فقد أناب عليا رضى الله عنه ليبت مكانه .

(د) ثم اختياره الموفق لصاحبه فى رحلته : أبى بكر رضي الله عنه .

---

(٩٨) سورة الصافات الآيات من ١٠٣ ــ ١٠٧

انتصار بكل المقاييس :

يقول الحق سبحانه :

○ ـــــــــــ ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٩٦)

والآية الكريمة حث للمسلمين على الجهاد .. وتذكير لهم بأن تقاعسهم لن يترك الرسول وحده فى الميدان .. وقصة الهجرة شاهد صدق على ذلك حين نصره الله تعالى .. وكان نصره مؤزرا :

(أ) لم يكن معه الا رجل واحد .

(ب) فهما معا فى جانب .. والدنيا كلها فى جانب .

(جـ) وقد اوشك اليأس أن يهدد ايمان ابى بكر حين وجد الكفار على باب الغار لولا ايمان الرسول وثقته بربه .

(د) الباطل يرصد الأموال الطائلة لمن يقبض على النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبه .

(هـ) وتبدو تباشير النصر المؤزر حين أنزل الله سكينتـه عليه فاستقرت القلوب فى الصدور .

---

(٩٦) سورة التوبة آية ٤٠

(و) وتتنزل الملائكة لتحسم المعركة لصالح القلة المؤمنة واضعة فى اعتبار المؤمنين منذ اليوم ما للقوة المعنوية.. وما للمدد الالهى من قوة تزرى بما يجمع المبطلون .. حتى لا تكون لعدة الباطل وعدده من بعد وزن عند النزال .

* * *

محاولة ماكرة لاحباط الهجرة :

بدأت خطة الاعداد لضرب الدعوة بالغيظ الذى بدت آماراته فى نظرات العيون . وفلتات اللسان :

○ ——— ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ (١٠٠)

ثم يعبر الغيظ عن نفسه فى التركيز على القيادة التى يراد لهـا أن تزول :

○ ——— ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١٠١)

---

(١٠٠) القلم الآية ٥١
(١٠١) الأنفال الآية ٣٠

ثم تتسع دائرة التآمر . حين توزع الأدوار بدقة .. فى محاولة لوقف مسار الدعوة .. بالتسلط على الاتباع بالكيد .. والحيلة ..

وقد كانت الهجرة مسرحا لهذا اللون من التآمر الذى يؤكد أن القوم لم يحاربوا الدعوة اعتباطا .. وانما هو الذكاء .. الواقف يخطط .. ويراقب .. ويتابع :

* * *

مثـــال :

كان « عياش بن ربيعة » أخ أبى جهل من أمه .

فلما اخذ طريقه مهاجرا .. ماذا حدث ؟

ان « عياش » محسوب على أخيه ابى جهل .. واعلانه الاسلام .. ثم هجرته يشكل ضربة لمركز أخيه الأدبى ؟ !

واذن .. فمنعه من الهجرة .. وافساد عزمه عليها بقطع رحلته .. مهمة لا يقدر عليها الا أبو جهل نفسه :

فهو صاحب المصلحة فى منعه ..

وهو صاحب الباع الطويل فى التنكيل بالمسلمين ..

وهو اخيرا : أخوه .. ومن منطلق الأخوة يمكن أن يتسرب الى نفسه ليقنعه بالعدول عن عزمه .

* * *

بداية المؤامرة:

لحق به ابو جهل فى الطريق .. فقال له :

(ان أمك قد حزنت لفراقك . ونذرت الا تغسل راسها . ولا تمشط شعرها . ولا تستظل من شمس . حتى تعود اليها . فأنت أحب الأبناء اليها . وابرهم بها .

فارجع الى امك واعبد ربك كما تحب فى مكة ، لا يضيق عليك أحد) .

لم يلجأ ابو جهل الى التهديد .. فما يفيد التهديد مع ايمان ملك على النفس أقطارها .. فأخرجها من وطنها الحبيب مكة .. ايثارا للدعوة .. ورغبة فى اعلاء كلمتها .. مهما كان الثمن ..

ثم لم يحاول ابو جهل ان يلجأ الى الحوار والجدل حول قضية الايمان والهجرة وجدوى ذلك .. بعد ان حسم أخوه المعركة فى نفسه وبدأ يمارس الايمان عملا ..

وانما اختار اسلوب الدهاء يهز جانب العاطفة من الأعماق هزا عنيفا :

حيث صور له امه .. فى اسوا حالاتها .. وقد اسلمت نفسها لموت بطىء .. يوشك ان يطوى عمرها ..

ومن الذى يميتها ؟

اعز الأبناء لديها ..

وأبرهم بها ..

انه يقضى فى لحظة واحدة على كل مآثر الماضي ..

وهو بذلك يثير فيه عاملين :

عاطفة البنوة ..

ثم نخوة العروبة التى تخشى أن يعيرها الرفاق بالكارثة التى سوف تحدث فى البيت !

* * *

الورقة الأخيرة :

ولعب ابو جهل بالورقة الأخيرة :

انه لا ينسى أن « عياش » .. رجل متدين .. مؤمن ..

وقد خبر هو بنفسه عمق هذه الغريزة عندما مارس التعذيب مع الضعفاء من المؤمنين فما وهنوا ولا استكانوا ..

وبقيت العاطفة الدينية كما هى .. بل زادها التعذيب اشتعالا ..

من أجل ذلك يطمئن أخاه على دينه .. فسوف تكون له حرية العبادة مكفولة .. بلا عوائق .

الشاب المتدين يقع فى الفخ :

عرفت قريش من اين يأكل الكتف.. فسلطت .. « أبا جهل » على أخيه .. وعرف ابو جهل كيف يأكل الكتف .. فجاء الى أخيه من جانبه العاطفى .. فاستطاع أن يستميله .. ووافقه الأخ المخدوع .. تحت تأثير هذا الايحاء ..

وما اكثر الذين يسقطون فى الشراك المنصوبة تحت ضغط الايحاء .. حين يتسربون كالخفاش فى ظلمة الليل .. فيلمســون القلب الذى يفتح ابوابه للطارق الماهر .. بلا مناقشة .. بل ربما اختلقوا المعاذير تبريرا للهجوم الغادر .. فى غيبة العقل الواعى.. والذى يتحاشى المغرضون ادخاله طرفا فى النزاع حتى لا ينكشف المخبــوء ..

وقد يقراون على الضحية قصص الظلم .. والفقر .. وما تزدحم به الحياة من كوارث .. لفتا للقلب الذى قد يكون واقعــا تحت صورة من صور الظلم .. فيميل ويستجيب .. وتدخل الأفكار الغريبة .. فتعشش فيه .. والعقل نائم .. لا يدرى ماذا فعــل الغــزاة !

صـــوت العقـــل :

كان عمر رضى الله عنه رفيق « عياش » فى السفر .. فلما راى ما حدث .. كشف له عن المؤامرة قائلا :

ما يريد والله الا فتنتك عن دينك فاحذره . فوالله لو قد آذى امك القمل لامتشطت . ولو اشتد عليها حر الشمس لاستظلت .

كان عمر رضى الله عنه منطلقا من قاعدة :

لا يكن افضل ما نلت من دنياك : بلوغ لذة . او شفاء غيظ .
ولكن : اطفاء باطل . واحياء حق .

ومن ثم .. فقد حذره من اللذة العاجلة التى ستذهب بمتعة الأبــد ..

وبصره بعمق المؤامرة المستهدفة دينه .. ثم ما يتـــذرع به الباطل الذى يجيش جيوشا من الأوهام ليحاربه بها فى غير ميدان..

فما قاله عن أمه أوهام .. والمخاوف التى يرمى بها فى سماء حياته أضغاث أحلام .

عياش والارادة المسترخية :

كان أبو جهل قد نجح فى سرقة « عياش » بهـــذا القـــول المعسول . والوعد المبذول ..

وجاءت نصيحة عمر بعد فوات الأوان .. وكانت صـــوت العقل الذى يدوى فى فراغ ..

قال له عياش معتذرا :

(أعود فأبر أمى . ولى هناك أموال . وأرجع اليكم) .

التضحية من اجل الدعوة :

قال له عمر وهو يدرك أبعاد المؤامرة .

(خذ نصف مالى . ولا ترجع معه) .

وهكذا .. لا يكتفى بالنصيحة قولا .. وانما يتنازل عن نصف ثروته .. فى أشق الظروف الاقتصادية .. لينقذه من موت أدبى محقق ..

لكن « عياش » أصر على الرجوع .. وبدأت فعلا رحـــلة العودة أو النكسة . فانظر ماذا ترى ؟

* * *

الهــدف البعــيد :

لم يكن هدف ابى جهل مجرد كسب أخيه لانقاذ سمعته .. وانما كانت غايته ان يجعل منه عبرة لمن تحدثه نفسه بالتمرد على قومه من بعد .

من اجل ذلك احتال عليه حتى يقيده بالأغلال .. وليدخل به مكة هكذا مبتذلا مهينا .. فى محاولة لاظهار قوته .. وطول يــده التى لا يفلت من قبضتها الهاربون :

قال له ابو جهل عبر الطريق :

(يا أخى : قد تعبت من ركوب بعــيرى . ألا تردفنى من خلفك . فان بعيرك اسلس . ورحلك أوطأ .

فلما اناخ له البعير فاجاه ابو جهل من خلفه .. والقى به على الأرض .. وربطه بالحبال .. وعاد به الى مكة مكبلا .. وفى وضح النهار .. ثم اذن فى الناس :

(هكذا فافعلوا بسفهائكم اذا خرجوا عليكم) .

الايمان يعلن عن نفسه :

ولندع الخيانة تعيش لحظة انتصارها المزيف .. لنتامــل الايمان هناك فى الغار .. وهو يعلن عن نفسه .. مؤكدا هزيمـــة الخائنين :

فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول لأبى بكر : لا تحــزن ان الله معنا ..

لقد كان اطمئنانه الى نصر الله تعالى اقوى من اطمئنانه فى غزوة بدر ..

ويلحظ العلماء هنا أنه :

لم يكن فى الغار سلاح .. ولا جند .. ولا امل فى عون خارجى ..

لقد كان اعتماده على ربه تعالى وحده .. ومن ثم كان اليقين فى نصر الله والفتح ..

اما فى بدر : فقد كان هناك جيش .. وعتاد .. وتخطيط فكان دعاؤه أعمق .. حتى لا يكله الله تعالى الى عدته وعدده ..

وكان بعض الصالحين يقول :

أنا فى معصيتى ارجى منى فى طاعتى :

لأننى فى الأولى اعتمد على ربى .. وفى الثانية أعتمد على نفسى !

ومن هنا قيل :

اطلب رضوان الله تعالى عن طريق الفضل .. لا عن طريق العدل :

ففضل الله اوسع من الدنيا ..

وعدله : فى البلاء فقط ..

وليس هناك من شىء الا وفيه فضل منه سبحانه وتعالى .

الهجــرة والنصر الأكبر :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١٠٢)

تمهـــــيد :

فى تاريخ الأمم مواقف تعتز بها .. وتسترجع بتذكارها أمجادا سلفت من عمرها .. تباهى بها الأمم .. وتشحذ بها الهمم التى يجب أن تمضى على هداها من جديد . والى الأمام ..

وللمواقف العظيمة فى تاريخ الاسلام مذاق فريد :

انها أعياد نقدرها قدرها .. ثم هى تعيننـــا على شـــكرها كنعمة من الحق تبارك وتعالى شكرا يقيدها .. لتظـــل ماثلة فى وعينا .. فتحث الخطى الى مزيد من النعم التى يصل الله سبحانه جديدها بقديمها .

---

(١٠٢) سورة التوبة آية ٤٠

وللهجرة النبوية موقعها الممتاز بين هذه الأعياد :

لقد كان لها أثرها فيما تلاها من غزوات ..

اما ما كان قبلها من مشاهد وتضحيات فلم يكن ليبلغ كماله الا بالهجرة التى كانت تتويجا لما سبقها من هذه التضحيات ..

(ومن القرى الثلاث : مكة والطائف والمدينة .. حيث بدات الدعوة الى القارات الثلاث :

آسيا وأفريقيا وأوروبا حيث انتهى الاسلام تنقل كتاب الله بالهدى والنور على يد الأمة الوسط . بقيادة رسولها الأعظم . وجهاد أبطالها الميامين . فطهروا النفوس من الرجس . وحرروا العقول من الشرك . وثلوا عرش قيصر . وقوضوا ايوان كسرى. وشادوا على أنقاضهما منبر محمد . ومئذنة بلال . ثم لم يلبث نور الله أن غمر الشرق حتى بلاد الصين وطبق الغرب حتى بلاد الغال)(١٠٣) .

لقد سخر الله تعالى ليلة الهجرة من كل ما اصطلح عليه البشر من فنون الحرب .. فجاء نصره سبحانه فى غيابها .. على نحو يجعل من الهجرة محلى القوة كما يجب ان تكون ..

ففى الوقت الذى عز فيه النصير .. وقل السلاح .. يجىء النصر الذى يهز الضمائر الجامدة .. لتصحو على الحقائق الجديدة وعلى رأس هذه الحقائق ما اشارت اليه الآية الكريمة التى نزلت عليه صلى الله عليه وسلم وهو فى الطريق :

---

(١٠٣) احمد الزيات . مجلة الازهر محرم ١٣٨٧

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ (١٠٤)

وهل كان فى الامكان تصور عودته صلى الله عليه وسلم الى مكة منتصرا .. ؟

لقد كان قصاراه — فى مرأى العين — ان ينجو بنفسه من الخطر المحدق به ..

أما أن يأخذ الوعد بالعود الحميد .. وهو .. ومعه صاحبه.. ولا بارقة هناك من أمل .. فذلك هو التأييد الالهى الذي يجعل من هذا الحدث العظيم نجم هدى فى بيداء الحياة .. ومن اشراقة يبزغ الصبح المبين .

ان اعتماد القلب على قدر الله وكرمه يستأصل جراثيم اليأس . ومنابت الكسل .

ويشد ظهر الأمل الذى يلج به الساعى أغوار البحار . العميقة . ويقارع به السباع الضارية فى فلواتها(١٠٥) .

بقدر ما يزيل الحجب لترى ما لا يرى بالعين المجردة ..

---

(١٠٤) سورة القصص آية : ٨٥
(١٠٥) الحرية فى الاسلام للشيخ محمد الخضر حسين .

وفى هذا الظلام الدامس رأى صلى الله عليه وسلم «سراقة» وفى يده سوار كسرى !

كما رأى فى شرارة الصخرة يوم الخندق قصره المنيف !

سنة الحـــق تعــالى فى خلقه :

ومن سنن الله تعالى فى خلقه أن ينصر سبحانه من ينصره .

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١٠٦)

والسؤال الآن :

ماذا قدم الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معــه من تضحيات استنزلوا بها نصر الله والفتح ليلة الهجرة ؟

حتى اذا تطلعت أمتنا فى ظلمة اليأس الى بشائر النصر على اعدائها وجدت فى الهجرة دليل عملها .. السائر بها الى مثله .. سنة منه تعالى لا تتخلف ؟

ان نور الهجرة المضىء ليغنى أمتنا عن استيراد أسباب النصر والهزيمة من خارج نفوسها ..

لقد بدأ صلى الله عليه وسلم باعداد المجاهد المسلم . . الواقف بايمانه فى الصف الاسلامى .. هذا الصف الفولاذى الذى لا يقبل الاختراق ابدا !

---

(١٠٦) سورة الحج آية ٤٠

دعائم النصر :

ما هى دعائم النصر التى أرساها الرسول ؟

تتلخص هذه الدعائم فى أربع(١٠٧) .

(أ) ينبغى أن تكون صفة المسلم .. مسلمة مثله !

بمعنى أن يتحلى المسلم بكل صفة نبيلة جاء بها دينه .. والا ..

فلو اتصف الكافر بالفضيلة وتخلى عنها المسلم .. لانتصر الكافر .. وهزم المسلم .

وقد كان المسلم تطبيقا عمليا لمبادىء الاسلام على صعوبة الموقف من حوله ، وتربص الباطل به .

* * *

ومن هذه المبادىء :

*** الاخلاص :**

لقد كانت الهجرة (اكراه رجل آمن فى سربه .. ممتد الجذور فى مكانه . على اهدار مصالحه . وتضحية امواله . والنجاة بشخصه فحسب . واشعاره — وهو يصفى مركزه — بانه مستباح منهوب . وقد يهلك فى أوائل الطريق او نهايته .

(١٠٧) الفكرة هنا للشيخ بديع الزمان النورسى .. وضحناها وعليها مزيد من التطبيقات العملية .

وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم . لا يدرى ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان .

ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه لقيل : مغامر طياش .. فكيف وهو ينطلق فى طول البلاد وعرضها يحمل أهله وولده . وكيف وهو بذلك رضى الضمير وضاء الوجه(١٠٨) .

انهم كما يقول ابن الجوزى :

رجال مؤمنون . ونساء مؤمنات : يحفظ الله بهم الأرض . بواطنهم كظواهرهم .. بل أجلى ..

وسرائرهم كعلانيتهم .. بل أحلى .

وهممهم عند الثريا .. بل أعلى .

ان عرفوا تنكروا . وان رئيت لهم كرامة .. انكروا .

فالناس فى غفلاتهم . وهم فى قطع فلاتهم . تحبهم بقاع الأرض وتفرح بهم أملاك السماء(١٠٩)) .

* * *

*** الفدائية :**

ان العلم وحده .. غرور وشيطنة .

والفن وحده .. لهو ومجون .

---

(١٠٨) صيد الخاطر ٥/٦
(١٠٩) فقه السيرة ١٦٥

والحــب وحــده .. هيام وخيال ..

واذن .. فلا تتم القدوة الا بالاتباع .. وان كان فيه الضياع!

(قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) .

وعلى هذه الفدائية رباهم صــلى الله عليه وسلم .. فصاغ الجندى المثالى المسبوك بقانون الاسلام لا ينفصل عنه .. وهو اذ يدافع عن نفسه فانما ــ وفى نفس اللحظة ــ يدافع عنها :

و (هذا هو الرجل الالهى الذى :

لا ينثنى .. لأنه الحــق .

ولا ينحرف .. لأنه العــدل .

ولا يخــاف .. لأنه البأس .

ولا يضعف لأنه القــوة .

ولا يحيف لأنه الانصاف .

ولو تعلق به اهل الأرض جميعا لمشى بهم مطمئنا .

لأنه فى نفسه كقطعة من نظام السماء الذى يجذب الأرض فى فضائها .

وهذا هو الرجل الذى يتعرف به الناس معانى الاصطلاحات النفسية القوية .

كالشهامة والنجدة . والصدق والاخلاص والايثار . وما اليها من سائر المفردات التى يتألف منها معجم الفضيلة .

وهو فى كل ذلك كأنه قاعدة من قواعد العلوم : تعطيك المثل الذى تريده .

لأنها هى ذلك المثل .. لا لأنها تعطى وتمنع .

فلو اريد ذلك الرجل على الخيانة واللـــؤم والجبن والتعلق والمداهنة ونحوها . مما يكون فى المتشبهين به لزاد وفـــاء وكرما واقداما وانفة واباء . كما يزيد طيب العود باحراقه) .

وقد كان على رضى الله عنه واحدا من هذه النماذج .. حين بات فى فراشه صلى الله عليه وسلم .

*** الأمانـــة :**

وتجـــلى ذلك فى تكليف على رضى الله عنه برد الودائع الى اصحابها من المشركين الذين لم يكونوا ليستأمنوا عليها احدا سوى محمد صلى الله عليه وسلم .

* * *

(ب) الدعامة الثانية :

ان تكون الوسيلة .. مسلمة !

بمعنى ان يتسلح الحق بما يناسبه فى الشرف من كل وسيلة تحمل سمته .. والا فان تقصير الحق فى اعداد الوسائل الحقة لن يصل به الى بر الأمان .

وقد اتخذ صلى الله عليه وسلم كل وسيلة ممكنة .. وحقه .

- كتم الأمر حتى عن أقرب المقربين اليه .

● ذهب الى أبى بكر على غير عادته فى وقدة الحر .

● أعد الراحلة .. التى بقيت زمنا طويلا تعلف بما يمكنها من قطع الرحلة بنجاح .

● وزع الأعباء .. وحدد المواقع .. واتخذ الدليل وهيأ الزاد.

● بقى بالمدينة حتى اطمأن على خروج أتباعه .

وعندما عاد من بيت أبى بكر الى بيته استعدادا للخروج حاصر المشركون البيت .. فأعانه القدر الأعلى على الخروج بحفنة من تراب كاد تاثقل عليهم من جبل أحد(١١٠) .

ولم تأت هذه النجاة عفوا أو محاباة .. ولكن الباطل كلما زاد فى وثباته .. وزاد الحق فى ثباته .. جاء نصر الله والفتح .

* * *

(جـ) القاعدة الثالثة :

من القوة الى الفعل :

لقد كان المسلم ليلة الهجرة على أوفى ما تكون القوة الفاعلة :

(ومن فضائل القوة التى يوجبها الاسلام أن تكون وثيق العزم . مجتمع النية على ادراك هدفك بالوسائل الصحيحة التى تقربك منه .

---

(١١٠) من مقال للرافعى .

باذلا قصارى جهدك فى بلوغ مأربك . غير تارك للحظوظ ان تصنع لك شيئا . أو للأقدار أن تدبر لك ما قصدت فى تدبيره لنفسك! فان هناك أقواما يجعلون من اللجأ الى الله ستارا يوارى تفريطهم المعيب وتخاذلهم الذميم .

وهذا التواء كرهه الاسلام(١١١) .

* * *

ولقد خرج الاسلام بهذا المسلم الايجابى المهاجر .. خرج من القوة الى الفعل وان لم ترق قطرة دماء واحدة !

ان احراز النصر فى معركة ما .. راجع الى الجندى الذى ادار ظهره للحياة الدنيا .. فتحرر من مطالبها .. ثم أعطى وجوده كله للمعركة .. ثم كان بذلك قرير العين راضيا !

لقد بكى أبو بكر رضى الله عنه حين علم بالصحبة من الفرح !

ولم يكن يخفى عليه ما تحف بها من اخطار وقد يدفع حياته فى مرحلة من مراحلها .. وسجلت ابنته عائشة رضى الله عنها ذلك الموقف الخالد فى قولها :

(فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم . أن أحدا يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكى(١١٢)) .

---

(١١١) من حديث رواه ابن اسحاق .
(١١٢) خلق المسلم ١٢٠

وعلى رضى الله عنه يرضى ان ينام فى مضجع الرسول صلى الله عليه وسلم فى ظروف تجمع الدلائل كلها على موت محقق يلحق عليا رضى الله عنه .. ولكنه قبل راضيا .

فاذا اضيف الى ذلك موقف صهيب الذى تنازل عن كل أمواله لينجو بعقيدته .. وابو سلمة الــذى اغترب تاركا اهله وولده للضياع .. اذا تصورنا ذلك تحقق لنا مقدار ما تحدثه هذه المواقف من آثار خطيرة وردود فعل لدى كل من يراها وخاصة من اعداء الدعوة الذين تتلألأ فى عقولهم معانى الفدائية والاخلاص .. فتفرض عليهم احترام المسلمين وان لم تحملهم على حب الاسلام والدخول فيــه .

ان موقفا واحدا من هــذه المواقف يغنى عن جيش مدجج بالسلاح .. كما يغنى عن جيش من الدعاة خبير بصناعة الكلام .. وان امة تملك جندا من هــذا الطراز تملك فى نفس الوقت أسلحة النصر .. وهى غير قابلة للهزيمة أبدا :

والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم . قريبة الرؤية لأعينهم .

ولكن صور النصر شتى . وقــد يتلبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة .

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش الف عام كما نصرها باستشهاده .

وما كان يملك ان يودع القلوب من المعــانى الكبيرة ويحفز الالوف الى الأعمال الكبيرة .. بخطبة مثل خطبته الأخيرة التى

يكتبها بدمه . فتبقى حافزا محركا للأبناء والأحفاد . وربما كانت حافزا محركا لخطى التاريخ كله مدى أجيال(١١٣)) .

لقد كانت الهجرة منعطفا خطيرا على طريق الدعوة حدث به التغيير الكبير فى نفوس المسلمين صاروا به جندا لحمته الاسلام وسداه .. وعندما غيروا انفسهم هكذا .. جاءهم نصر الله :

« **فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا** » سورة التوبة آية ٤٠

اجل .. جاءهم النصر بعد أن نضجت مواهبهم .. وأينعت نفوسهم فأثمرت ثمرتها من الصبر .. والوحدة .. والايثار .. ايثار المهاجرين والأنصار معا .

ان شجرة البرتقال قبل أن تثمر — لا تحقق هويتها .. انما تحقق ذاتها فى اللحظة التى تسفر اكمامها عن الثمار المدلاة تطعم الجائعين . وتسر الناظرين !

اما قبل ذلك فهى عود اخضر كسائر الأعواد .. يمكن بعد قليل أن ييبس ليكون حطبا فى النار .

والاثمار يساوى لحظة الميلاد فى حياة البشر .

وقد ولد المسلم بالهجرة من جديد على ما يقول ابن تيمية :

(**ان فكرة الأمة لا تتحقق لمجموعة من الناس الا اذا اشتركوا فى فعل واحد**) .

---

(١١٣) طريق الدعوة ٣٥٧ ج ١ جمع أحمد فائز .

وهاهم أولاء : المهاجرون : يشتركون فى فعل واحد .. الى هدف واحد فلما تألفوا مع الأنصار .. ظهرت خصائصهم الفريدة التى لم تظهر فجأة .. وانما أبرزتها بوتقة الأحداث :

انهم يجتمعون .. بعد شتات .

ويظهرون .. بعد اختفاء .

ثم بدت الأخوة فى أجلى معانيها حين تجاوز كل انصارى حدود مصلحة نفسه .. ليؤثر مصلحة عقيدته .

وهنا تبرز أكمل صـــور الانتصار على شهوات النفوس يجعل الانتصار فى الميدان العسكرى أمرا مفروضا .

المسلمون اليوم فى ضوء الآية الكريمة :

ومازالت الآية الكريمة تتجه الى المسلمين اليوم مذكرة لهم بما فى الهجرة من دلالة :

مازالت تقول لهم :

اذا لم تنصروا الرسول .. بتطبيق الشريعة التى جاء بها .. اذا لم تنصروه وقـــد صرتم آلاف الملايين .. تملـــكون من الثروة ووسائل القوة ما تملـــكون .. اذا لم تنصروه ولديكم من وسائل الاعلام .. وطرائق المعرفة ما يمهد أمامكم السبيل .

(الا تنصروه .. فقد نصره الله) يوم أن لم تكن عدة .. ولا عتاد .. ولا مال.. ولا حيلة .

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١١٤)

* * *

وبعـــد :

(فلولا الهجرة ما كانت النصرة . ولولا النصرة لمـــا كانت بدر . ولولا بدر لمـــا كان فتح مكة .

ولولا فتح مكة لمـــا فتحنا القادسية واليرموك .

ولولا فتح القادسية واليرموك لمـــا ورثنا ملكى كسرى وقيصر.

ولولا الفتوح التى تلت ذلك لمـــا غير القدر مجرى التاريخ وعدل وجهة الدنيا .

وجعل البادية الجديبة . والعروبة الشـــتيتة عمرانا طبق الأرض بالخير . وملكا نظم الدنيا بالعدل . ودينـــا الف القلوب بالرحمة . ومكن للعرب فى دورهم أن يبلغوا رسالة الله . ويؤدوا أمانة الحضارة . ويصلوا ما انقطع من سلسلة العلم .

ان تاريخنا الهجرى الذى انبثق من الغار . واندفق من قلوب المهاجرين والأنصار . وفاض مع المجاهدين على الأمصار والأقطار. لتتألق أيامه الغر فى ظـــلام الماضى كما تتألق الكواكب الزهر فى حلك الليل :

---

(١١٤) سورة الحج آية ٤٠

أرشدنا الضال فاهتدى . وحمينا الذليل فاعتز . وعلمنا الجاهل فتعلم . ثم مكنا فى أرضنا الفسيحة . ودنيانا العريضة لعناصر الجمال والخير والحق . فتوثبت فى كل نفس . وازدهرت فى كل جنس . وانتشرت فى كل أفق وحققت لهذا الانسان طريد العداوة وعبد الطغيان أحاديث احلامه وهواجس أمانيه : من الأخوة التى يعم بها النعيم .

والمساواة التى يقوم عليها العدل .

والحرية التى تخصب بها المدارك(١١٥)) .

❋ ❋ ❋

ولقد ادرك الفاروق عمر بحسه البصير بعواقب الأمور هذه الحقائق فجعل من الهجرة مبدأ للتاريخ .. وكأنما عندها ولد المسلم من جديد .. وكان احتفالنا احتفالا بيوم ولد الحق والقوة معا .

والذين جهلوا هذه المعانى التى ضـمت عليها الهجرة فلم يؤرخوا بهـا .. فاتهم ذلك الفهم العميق .. وتخبطوا فى حنايا الطريق .

مواقف من غزوات الرسول :

تظل البطولة فكرة نظرية فى اذهان الناس : يصفقون لها . ويهتفون بها . لكنها — عند هـذا الحد — لا تسوقهم الى ميدان

---

(١١٥) من مقال للمرحوم أحمد حسن الزيات . مجلة الأزهر محرم ١٩٨٧

القتال كقوة دافعة .. وانما تصبح كذلك .. يوم يتاح لها بطل جسور .. ينفعل بها . ويعيش لها . وحين يجادل المتفلسفون لتحديد معناها فى قاعات الدرس .. فانه فى ساحات الوغى يحسم المعركة بارادته الماضية قبل أن يحسمها بسيفه القاطع .

ذلك بأن عزة الأمة وحماية يومها وغدها تعنى حماية البطل ذاته وذريته معه واحفاده من بعده .. فلابد من الجهاد .

الا وان المصلحة الحقيقية أن يبقى الحق مرفوع الراية .. وان دفع البطل حياته ثمنا .

فالمتعة الحقيقية أن يضحى المسلم بمنفعته الشخصية .. لأن المنفعة العظمى . أن يبقى دينه وترقى امته .

وهذا سر من أسرار الاعجاز الاسلامى الذى ربى الرجال على الايمان بالمبدأ .. ثم العمل له والتفانى فيه . لتظل الحياة ابدا متجددة القوة .. لا أن تكون مدرسة تلقن الدروس ولا تصوغ النفوس .

واذا كانت المحن تصيب اقواما بالتمزق .. فانها فى ضوء الايمان تلهب المشاعر .. وتنفجـــر الطاقة ليبدأ المجاهد الاقلاع من جديد !

***

ولم تكن الغزوات فى الاسلام مجرد مواجهة عسكرية تتلاقى فيها السيوف .. فتتطاير الرءوس .

بيد أنها كانت مجالات كشـــفت عن المعادن النفسية التى صنعها الاســـلام على عينه وبدت فيها معادن فى :

الرغبة فى الشهادة ــ التجرد .

العزم الصادق .

الثبات على المبدأ .

الصبر الجميل .

العـــدل :

التسامح .

الايثـــار .

الى غير ذلك من قيم الايمان .. والتى نحاول الآن البحث عنها .. والتنويه بها . من خلال هـــذه التأملات فى مسار هـــذه الغزوات :

****

دروس من غزوة بدر :

قبل أن يلتقى الفريقان .. ظهر التمزق فى صفوف المشركين . رغم ما لوحوا به من قوة .. ومع تهـــديد أبى جهل بتدمير جيش المسلمين .. وأمله الوطيد فى نصر حاسم .

وعلى الجبهة الاســـلامية كان السباق المشتاق الى النصر أو الشهادة . وكان ذلك الاختلاف طبيعيا بحكم اختلاف الدوافع فى قلوب الفريقين :

فالمشركون لا يدينون بعقيدة .. ومن ثم فأفئدتهم هواء .. فمن أين يستمدون القوة ؟

ومن أين يأتيهم نصر هو خليق بالمسلمين المجتمعين تحت راية الاســـلام مدفوعين بعقيدة تجعل الموت أحب اليهم من الحياة ؟

التمزق على الجبهة المعادية :

تقول كتب السيرة :

كان كل شيء فى غزوة بـــدر يؤذن بهزيمة المشركين ، وهى بالنسبة لهم لم يكن لها داع اصـــلا ، وبدا فى صـــفوفهم التردد والخور من اول الأمر بينما بدا فى صفوف المسلمين العزم والتصميم، لذلك لم تغن عن المشركين كثرتهم .

قعد أبو لهب واناب عنه هشام بن المغيرة لدين كان له عليه ، وتردد أميه ابن خلف ، لأن صديقه سعد بن معاذ الانصارى كان قد أخبره من قبل انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يقول انه سيقتله ، فخاف أمية ولمـــا اخبر زوجته بما قال ، قالت له : والله ما كذب محمد قط ، احرص على الا تقابله ، فلما جاء النداء للغزوة صمم على القعود ، وكان شيخا جسيما ، فاقسم الا يخرج من مكة ، لأن زوجته قالت له انسيت ما قال اخوك اليثربى ؟

قال لا اخرج ، والله ما كذب محمد قط .

وتثاقل عتبة وشيبة ابنا ربيعة وقال لهما خادمهما عداس : بأبى وامى انتما ، والله ما تســـاقان الا لمصارعكما ، وكانا ايضا هم أمية وزمعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام استقسموا بالأزلام

فخرج لهم القدح الناهى المكتوب عليه لا تفعل ، فزادهم تراخيا ثم اجمعوا على الاقامة وعدم الخروج للحرب .

ثم بدا لهم موقف آخر ، وهو الثار الذى كان بينهم وبين كنانة فخشوا أن تهجم عليهم من خلفهم ، فثبطهم ذلك اكثر .

وكان ابو جهل وعقبة بن ابى معيط والنضر بن الحارث اقوى المتحمسين ، وكان كل همهم أن يقتلوا محمدا .. صلى الله عليه وسلم .. وقد قتلوا هم الثلاثة وما كانوا يقدرون ذلك ، اغرى ابو جهل عقبة ابن معيط .. وكان عقبة وقاحا سليط اللسان . بأمية بن خلف ، فجاءه ، وهو فى مجلس قومه ووضع امامه مجمرة فيها البخور ، وقال استجمر ابا صفوان ، فانما انت من النساء فثار امية ، وصاح مغلظا : قبحك الله وقبح ما جئ تبه ، وبذا وصل ابو جهل الى شىء كبير مما يريد ، ثم جاء هو الى امية ، فقال له يا اباصفوان ، انك متى يراك الناس قد تخلفت . وأنت سيد اهل الوادى تخلفوا معك . فسر معنا يوما أو يومين ثم ارجع ، فتجهز مع الناس ولا تثبطهم ، فقام يتجهز وهو على تردد وزوجته تذكره ما قاله له سعد بن معاذ وتنهاه عن الخروج . فخرج على امل ان يرجع قبل المعركة .

ولم ينته هذا التردد بين القوم حتى وهم امام الميدان يتأهبون للمعركة .

* * *

الشوق الى الجنة :

ولنترك المشركين يتلاومون .. ويتبـــادلون التهم المنذرة بهزيمتهم سلفا .. لنرى ذلك التسابق البطولى الى ساحة الوغى : على الجبهة الاسلامية :

تنافس الغلمان الصغار يحدوهم الأمل فى صـحبة الجيش المؤمن لعلهم يرزقون الشهادة .. أو يسـهمون فى صنع النصر المـأمول :

خرج الصبى عمير بن ابى وقاص — وهو فى مثل سن طالب الاعدادية الآن — يرجو أن يقبله الرسول صلى الله عليه وسلم جنـديا .

وكان اخوف ما يخافه ان يرده الرسول . لأنه صغير السن.

وساعده ذكاؤه المبكر على التخفى عن الأنظـار .. فكان يتوارى خلف الصفوف حتى لا يراه الرسول صـلى الله عليه وسلم فيرده .

سأله اخوه سعد بن أبى وقاص عن سر تخفيه فقال :

اخاف أن يردنى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وانا احب ان اموت شهيدا .

ولقد بكى عمير كثيرا . لمـا أراد صـلى الله عليه وسلم رده لعدم بلوغه سن الرجال .. فرق له قلب الرسول .. فأجازه .

وقتل فى غزوة بدر شهيدا .

فأنظر كيف يستدبر الصبى الصغير ملاعب صباه .. وينحى عنه آمال امثاله من الصغار فى الحصول على شهادة مدرسية .. أو سياحية فى الأرض .. أو جائزة رياضية أو اجتماعية .. ليركز همه كله فى الخروج من هذه الدنيا .. لا زاهدا فيها وانما تدعيما للدين الجديد . وارساء لقواعده . ولتظل الدنيا آمنة فى حراسة الايمان .. ولم يملك اخوه سعد بن أبى وقاص وهو القائد الكبير أن يشفع له . فمصلحة المعركة فوق كل اعتبار .. وحتى قرابته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانت لتحمل القائد على اجازته .

وانما الذى اجازه ما رآه الرسول من اصرار على القتال . رغم حداثة سنه .. وما احسه من طموح مبكر الى معالى الأمور .. فأجازه اجازة كانت علامة على الطريق . أمام الشباب حتى يقدموا حياتهم للدعوة .. ولا تكفى الثرثرة والجدال بعيدا عن ساحات النضـــال !

وفى الوقت الذى يتصارع فيه أفراد الأسرة اليوم حـــول الميراث .. واى الأخوة أولى بهذا السكن او ذاك .. نرى أشبال بدر يتصارعون حتى مع آبائهم حول ايهمـــا أولى بالاشتراك فى المعركة .. ويمتد الصراع الى درجة اللجوء الى الاقتراع سبيلا الى فض النزاع .

فاذا كانت القرعة من نصيب الصبى لم يتنازل لأبيه اذا كان المتنازل عنه الجنة .. ولو كان النزاع حول الدنيا كلها .. لتركها لأبيه تقديرا لأبوته واستهانة بالدنيا التى لم تكن شغله الشاغل !

عـــدل يســـمو على السمو :

ويتجلى بعد آخر من أبعاد البطولة : فى مدى الصعوبة التى كان يعانيها المسلمون فى طريقهم الى بدر الى جانب قلة عـــددهم بازاء المشركين :

فالمسافة بين بدر والمدينة تزيد على مائة وستين كيلو مترا

ومع طول المسافة ووحشة الطريق . فلم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه سوى سبعين بعيرا يعتقبونها .

روى أحمد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :

كنا يوم بـــدر : كل ثلاثة على بعـــير ــ يتماقبون ــ وكان « أبو لبانة » وعلى بن ابى طالب زميلى رسول الله صلى اللـــه عليه وسلم . قال :

فكانت عقبة ــ أى دور ــ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا له :

نحن نمشى عنك ــ ليستمر راكبا ــ فقال :

ما أنتما بأقوى منى على المشى . ولا أنا بأغنى عن الأجـــر منكما(١١٦) .

وهنا نقف على سر من أسرار الفدائيـــة الاســـلامية تتمثل فى الأسوة الحسنة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكيف

---

(١١٦) فى المسند رقم ٣٩٠١ ــ ٣٩٦٥ وسنده حسن . ورواه الحاكم ٣/ ٢٠ وقال حديث صحيح على شرط مسلم .

حرص على تحمل نصيبه من الكفاح .. مؤكدا قدرته على ذلك . كاشفا عن شدة تواضعه صلى الله عليه وسلم وكيف أعلن مع علو مقامه أنه فى حاجة الى الثواب وهكذا تعيش القيادة المؤمنة « بين » جنودها فتشد من أزرهم .. ومن ثم تقوى بهـا الأواصر ويتحقق النصر .

بينما القيادات الدنيوية تدير المعارك من خلال القصـور المشيدة .. فتختفى الثقة الجامعة بين القاعدة والقمة .. فمن أين تهب عليها رياح النصر ؟ !

***

التجــرد :

قد يحملك المبدأ على أن تتبرع « بمصروفك اليومى » فى مشروع خيرى .. أو التنازل عن مكانك فى الحافلة المزدحمة .. أو عن دورك فى طابور تحت أشعة الشمس .

ولكن ما أسهل المهمة حينئذ الى جانب ما تطالعنا به غـزوة بدر الكبرى من حرص على التنازل عن الحياة ذاتها .. فى سبيل المبدأ . وأقصى من ذلك أن تفرض عليك الظروف أن تواجه أباك فى معركة حياة أو موت .. وتلك قمة الاخلاص للمبـدأ . وهـذا ما حدث فى غزوة بدر . يقول الشيخ محمد الغزالى :

(فى هذه المعركة : التقى الآباء بالأبناء . والأخوة بالأخوة . خالفت بينهم المبادىء . ففصلت بينهم السيوف .

وفى عصرنا هذا قاتل الشيوعيون مواطنيهم . ومزقوا اغلى الأواصر الانسانية فى سبيل ما يعتقدون .

فلا عجب اذا رايت الابن المؤمن يغاضب اباه الملحد .. ويخاصمه فى ذات الله . والقتال الذى دار فى بدر سجل صورا من هذا النوع الحاد :

كان أبو بكر مع رسول الله .

وكان ابنه عبد الرحمن يقاتله مع ابى جهل .

وكان عتبة بن ربيعة اول من بارز المسلمين .

وكان ولده ابو حذيفة من خيار اصحاب النبى . فلما سحبت جثة عتبة لترمى فى « القليب »(١١٧) نظر الرسول الى ابى حذيفة فاذا هو كئيب قد تغير لونه فقال له :

لا والله يا رسول الله . ما شككت فى ابى ولا فى مصرعه .

ولكنى كنت اعرف من ابى رايا وحلما وفضلا . فكنت أرجو أن يهديه ذلك الى الاسلام . فلما رايت ما اصابه . وذكرت ما مات عليه من الكفر . بعد الذى كنت أرجو له . أحزننى ذلك ! . فدعا له رسول الله بخير . وقال له خيرا(١١٨)) .

* * *

---

(١١٧) البئر .
(١١٨) ابن هشام .

من مفارقات القـــدر :

وكم للقدر الأعلى من سخريات :

لقد كان ابو جهل هو المحرض الأكبر على قتال المسلمين فى بدر .. ورفض الاستماع الى نصح الناصحين بالرجوع بعد أن نجت العـــير ..

الى جانب مســـئولية ايـــذاء المسلمين والتنـــكيل بهم فى مراحل الدعوة الأولى ..

ومن سخريات القدر أن يكون مصرعه عبرة لمن اعتـــبر .. بما حام حوله من مهانة ما كانت تخطر على رأس الفساد . المـــدل بقوته وجبروته :

يقول عبد الرحمن بن عوف(١١٩) :

انى لفى الصف يوم بدر . اذا التفت فاذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن .

قال لى احدهما سرا من صاحبه :

يا عم .. ارنى ابا جهل . فقلت :

يا ابن اخى .. ما تصنع به ؟ ! قال :

عاهدت الله ان رايته أن اقتله . أو اموت دونه .

وقال لى الآخر سرا من صاحبه مثل قوله :

---

(١١٩) راجع البخارى باب المغازى .

قال :

فما سرنى أنى بين رجلين مكانهما . فأشرت لهما اليه .

فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه . وهما ابنا عفراء) .

* * *

لقد كان سن الفتى صغيرا .. لكن عقله كان كبيرا .. وكانت آماله كبارا أيضا !

ولقد بلغت شدة حرص كل منهما على قتل أبى جهل أن أسر الى عبد الرحمن بن عوف بعيدا عن رفيقه فى السلاح ليخلص وحده الى أبى جهل متحملا مسئولية مواجهة هذا الطاغية . ويشتد تعجب ابن عوف أمام اصرار كل منهما .. وأمام حكمة كل منهما أيضا ..

ويسعد « الشيخ » عبد الرحمن أبو عوف .. حين يراهما وقد انطلقا صقرين كاسرين لينقضا على الفريسة .. فقتلاه .. ولم ينفعه ابنه « عكرمة » الذى خف لنجدته دون جدوى . ولقد دس وجهه فى التراب حتى لا يراه المسلمون .

* * *

ولكن عبد الله بن مسعود اكتشفه فلما عرفه قال له :

أهذا أنت يا عدو الله . لا تزال فيك بقية من حياة ؟ ووضع قدمه فوق عنقه وداس عليه . فلما نظر اليه أبو جهل قال له : لقد ارتقيت مرتقى وعرا يارويعى الغنم !

فقال ابن مسعود : أنظر يا عدو الله ما يصنع بك راعى الغنم ..

وشد عليه بقدمه حتى مات تحت حذائه !!

* * *

ومن تعاجيب الليالى .. أن ابن مسعود صاحب القدم الصغيرة . والتى كان الصحابة يتندرون بدقتها وصغرها تثبت اليوم أنها كما أشار الرسول صلى الله عليه وسلم تزن جبل أحد !

ومن كان يصدق أن نهاية أبى جهل ستكون على يد ابن‌مسعود بالذات ؟

ولكن هذا .. هو ما حدث .. وانتصر الحق بفضل الله وعلا لواؤه وخذل الباطل وطاش سهمه .

كيف عامل المسلمون اسرى بدر ؟ :

كان من نتائج غزوة بدر أن وقع فى قبضة المسلمين عدد من الأسرى .. ومن خلال معاملة المسلمين لهؤلاء الأسرى بدت الأهداف الحقيقية للجهاد فى الاسلام .. وهى أنه لا يستهدف اراقة الدماء. لكنه يتوخى عمارة الحياة وارساء دعائم الأخوة الايمانية .. والعدل . والمساواة والايثار .

كان من بين الأسرى « أبو عزيز عمير بن هاشم » أخو مصعب ابن عمير .

وكان مصعب صاحب اللواء يـــوم بدر . و « أبو عزيز » صاحب لواء المشركين . ومر به أخوه مصعب وواحد من الأنصار يشد يديه . فأوصاه بأن يشد وثاقه قائلا :

ان أمه ذات متاع لعلها تفديه منك .

فقال له ابو عزيز : يا أخى .. أهذه وصاتك بى ؟!

فقال له مصعب :

انه أخى دونك (١٢٠) !!

❋ ❋ ❋

وانت واجـــد فى هـــذا الموقف أخوين شقيقين فرقت بينهما العقيدة فكان احدهما فى طليعة المؤمنين .. بينما الآخر فى مقدمـــة الكافرين .. وكان المتوقع ان يخفى مصعب مشاعره الحقيقية تجاه أخيه . مجاملة له فى احرج لحظات حياته .

فاذا لم يسعفه بوصاة ترحمه .. فلا اقل من ان يسكت ولو على مضض !

لكن مصعبا يصرخ بمشاعره على الملأ . انتصارا لايمانه . ومغالاة به . ضاربا عرض الحائط بعـــلائق الدم .. التى كانت تجمعهما بالأمس فى معارك الجاهلية بالحق وبالباطل ..

وحين يعاتبه اخوه عمير بمرارة على ما كان منه مذكرا اياه بأخوته .. يفاجئه مصعب بما يؤكد انقلاب حسابات الجاهلية راسا

(١٢٠) سيرة ابن كثير ج ٤٧٥/٢

على عقب .. فى ضوء الايمان الذى صار به المسلم أخاه .. دون « عمير ». الذى يقطع بكفره كل صلة للرحم !

* * *

لكن ذلك لم يمنع من حسن معاملة الأسرى بصفة عامة :

اوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم خيرا فقال :

(استوصوا بهم خيرا .

ويقول « ابو عزيز » نفسه شاهدا بذلك :

كنت فى رهط من الأنصار . حين اقبلوا بى من بدر .

فكانوا اذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصونى بالخبز .

واكلو التمر . لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم اياهم بنا . ما تقع فى يد رجل منهم كسرة خبز الا نفحنى بها . فأستحى . فأردها . فيردها على . ما يمسها(١٢١)) .

* * *

لقد اتيحت لعمير ان يرى لونا من التعامل ما رأى مثله قط . ولعله بدأ يتحقق من صدق أخيه « مصعب » فى دعواه اخوه المسلم دونه ..

فما يراه من الايثار شاهد بصدق ما يقول .

* * *

---

(١٢١) المرجع والموضع السابق .

وكان بين الأسرى : العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وابن عمه عقيل بن أبى طالب . وابو العاص ابن الربيع زوج بنت النبى صلى الله عليه وسلم . وما استطاع الرسول أن يصدر بشأنهم قرارا يستثنيهم من الأسر .

وقد تحدثت بعض الروايات عن أنه صلى الله عليه وسلم لما كان يسمعه من أنين عمه فى القيد .. فأصدر أمرا بالتخفيف عن كل الأسرى تفضلا .. كشف لهؤلاء الأسرى جوهر الاسلام الأخلاقى .. والذى لفت الأنظار اليه .. وعطف القلوب عليه ..

وبهذه الأخلاق دخل الناس فى دين الله أفواجا ..

واذا اكتشف المشركون اليوم كيف يجيد المسلمون صناعة الموت بأسلحتهم .. فقد اكتشفوا أمضى سلاح لتحقيق النصر وهو: ما يتمتع به المسلمون من أخلاق كريمة قويمة .. هى أربى من كل وزن .. وأمضى من كل سلاح .

* * *

واذا قال « جنكيز خان » الطاغية : اننى لا أفتح البلاد ولكن أتسلمها .. يعنى أنه يخرب القلوب أولا .. حتى اذا لم يبق الا الحطام الهش جاءه مستسلما ..

اذا كان الطاغية يفعل ذلك فقد كان الفتح الاسلامى شيئا غير هذا تماما :

كان صلى الله عليه وسلم يحيى القلوب ولا يحطمها .. يبعثها من رقادها لتستشعر حياة جديدة لا عهد لها بها ..

فاذا هى بهذه الصحوة آتية اليه مسلمة لا مستسلمة ..

مسلمة وجهها الى الله بقلوب ذاقت طعم الحق فوضعت وجودها كله لحساب هذا الحق .. بل انه لأقل ما تقدمه فى سبيله !

*****

من آثار بدر :

اعتاد الناس أن يتحدثوا عن « غزوة بدر » وآثارها فى السابع عشر من رمضان يوم عيد الغزوة فاذا مضى هذا اليوم جمعوا أوراقهم وطووها الى العيد القابل .. يفعلون ذلك وتفعله معهم أجهزة الاعلام ، وذلك خطأ كبير فى تناول التاريخ . فالتاريخ عبر وعظات، وهو فى الاسلام أكثر من ذلك لأنه سيرة العقيدة والدفاع عنها . وبعد أيام من عيد غزوة بدر نعود اليها لنذكر من آثارها ما يجب أن نذكره على الدوام ، لأنه من القضايا الشاملة فى حياة الأمة الاسلامية .

فمن مشاهد الجلال والجمال فى غزوة بدر : مشهد الأخوة السبعة : الأشقاء :

عوف بن الحارث . ومعاذ. ومعوذ. أبناء عفراء الأنصارية .. من زوجها « الحارث » .

ثم أخوتهم لأمهم : اياس . وعاقل . وخالد وعامر . من « البكير بن عبد باليل » .

ومع اختلاف الوالد .. وقسوة الظروف .. لكن الأم الرءوم تقدمهم جميعا أبطالا الى ساحة الوغى .

واذا كانوا يقولون فى القرية : فلان « تربية امراة » ازراء به. وسخرية منه فقد كانت « عفراء » هى الرد الالهى ألمثبت جدارة المراة المسلمة بالتربية .. فى أعلى مستوياتها .. حين صاغت منهم رجالا : لم تفرقهم مذاهب الفن .. ولا ملاعب الكرة ، وانما وحدهم الايمان ، فكانوا على قلب رجل واحد .. وجها لوجه أمام الطغاة ، وكان شرفا لهم أن ينتسبوا الى أمهم : عفراء التى صانت الأمانة وبلغت الرسالة .

سقوط مراكز القوى :

وعلى يد « عوف » وأخيه « معوذ » كانت نهاية أبى جهل فقد نفذا اليه من بين الصفوف كالسهم المارق . فصرعاه . وتركاه لابن مسعود رضى الله عنه . يجهز عليه . ويطأ رقبته بأصغر قدم لصحابى . تثبت اليوم انها فعلا تزن جبل احد . ثم تخلو الساحة من مركز القوة الذى يسقط اليوم على يد فتيان فى عمر الزهور . ولكن فى قوة الأسد الهصور !!

السلام .. من مركز القوة:

كان انتشار المسلمين فى بدر نقطة تحول فى تاريخ الاسلام قضى الله تعالى به على أهمية العدد والعدة فى غيبة الايمان .. وكان الظن انهما أساس الانتصار .. فى الوقت الذى برزت أهمية العقيدة المسلحة بالقوة .. على نحو قلب حسابات العدو .. وحطم مقاييسه فى وزن أقدار الرجال .. والتنبؤ بنتائج الحروب .

ومع ان الانتصار فى معركة بدر كان حاسما .. الا ان الأمر بالاعداد للجهاد مازال مستمرا .. بينما دماء المشركين لا تزال ساخنة عبر الصحراء .

جاء ذلك فى قول الحق سبحانه وتعالى بعد بيان احداث الغزوة فى سورة الأنفال :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم
مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟
مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾
۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ
حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (١٢٢)

والآيات الكريمة تطالعنا بالحقائق الآتية :

١ ـ قد يحرز العدو تقدما فى مجال الدعاية .. ومن الناحية العسكرية قد يكسب نصرا خاطفا فيحسب انه سبق فى المضمار

---

(١٢٢) سورة الأنفال الآيات من ٥٩ ـ ٦٢

سبقا يدل به عليكم ويزهو . ولكن ذلك ظن خاطىء فتجربة الأمس تفند هذا الزعم ..

ذلك بأن من ورائه قوة قادرة محيطة من جند الحق سبحانه.. الذين ان فاتهم مجاراته فى حملة التضليل .. فما فاتهم أن يتركوه على الساحة أشلاء ممزقة ..

٢ — وحتى يظل زمام المبادرة فى أيدى المؤمنين .. فلابد من الاستمرار فى اعداد القوة جهد الطاقة .. ليبقى المسلمون فى أذهان أعدائهم قوة مخيفة تشل حركتهم .. وتلزمهم التريث قبل كل خطة يديرونها .. أو شر يبيتونه ..

هم .. ومن وراءهم من قوى عالمية تمدهم فى الغى وتزين لهم العدوان ..

ان العدو المباشر واجهة تخفى نوايا حاقدة تتربص بالاسلام الدوائر .. ولابد أن يكون الديدبان يقظا .. مسلحا بالوعى .. والقوة .

٣ — وهــذه المسئولية الكبرى تفرض على كل انسان فى الدولة أن يسهم فى المعركة مهما كان وضعه المالى .

لأن العدو يستهدف الدين .. وهو حياة الجميع .. فلابد حينئذ من أن يظل شملهم جميعا .. وعلى ارتباط وثيق بالمعركة التى لا تغيب عن بالهم .. بكل صورة من صور البذل .

○ ———— ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟
مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (١٢٣)

٤ ــ اذا نبتت فكرة السلام فى اذهان الأعداء ودعوكم هم اليها فلا جناح عليكم فى قبول سلام تتحقق به ارادة الاسلام له .. لأنه حينئذ يجىء من مركز القوة . قوتكم أنتم التى ملأت أعين الأعداء فسعوا اليكم طائعين ..

اما السلام المرفوض فهو ذلك الذى تدعون أنتم اليه من واقع الضعف والتخلف .. على ما يقول سبحانه وتعالى :

○ ———— ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ
ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾ (١٢٤)

ان سلاما من هذا النوع يصبح استسلاما يأباه وضعكم القيادى الذى حصلتموه بمشيئة الله سبحانه .. والايمان به ..

على ان تذكروا جيدا ان رغبة الاعداء فى المعايشة السلمية مشكوك فيها علي ما يفيده حرف الشرط (ان .... جنحوا) .

انه « جنوح » اى ميل .. بالرأس قد يكون خداعا بينما اقدامهم متشبثة بعقائدهم ومكائدهم .. فكونوا منهم على حذر .. ثم ان حرف الشرط « ان » يقوم بدوره فى دعم هذا الشك فى نواياهم

---

(١٢٣) سورة الانفال آية ٦٠
(١٢٤) سورة محمد آية ٣٥

ثم كونوا أشد حذرا من الاعتماد على قوتكم المرصودة . . وتوكلوا على الله وحده ..

(وتوكل على الله ....) .

ان القوة ليست فى نوعية السلاح .. بقدر ما هى فى يد تحمله .. يحبها الله ورسوله .. وبالأمس القريب وقف زعيم عربى يتحدى دولة كبرى ..

وكان التحدى فى ذاته مقبولا .. لولا انه كان اعتمادا على قوة البشر الذاتية .. ونسيان واهبها سبحانه .. فكانت الهزيمة المشهورة بالنكسة ؟ !!

وحين صححنا ذلك الفهم جاء نصر الله والفتح .. ويبقى الا تنسينا افراح النصر واجب الاعداد المستمر لمعركة مستمرة بين الحق والباطل .. ولن تضع أوزارها مادامت هناك حياة ..

* * *

من صور الاعداد للمعركة :

كل كلمة .. كل حركة .. كل جهد مبذول من اجل المعركة.. محسوب بميزان الحق الذى لا يظلم مثقال ذرة ..

○ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ

لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ
نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً
وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ (١٢٥)

وقد تكفلت السنة النبوية بتفصيل ذلك الاجمال فى مثل قوله صلى الله عليه وسلم :

(ان الله يدخل ثلاثة نفر الجنة بسهم واحد) :

صانعه يحتسب فى صنعته الخير ..

والرامى ..

ومنبله ..) .

اى ان الرصاصة الواحدة .. التى تنطلق فى سبيل الله .. تفتح أبواب الرضوان أمام كل يد شاركت فيها اعدادا .. وتنفيذا ..

على شرط ان يتم ذلك استجابة لبواعث الخير .. واستهدافا لاعلاء كلمة الله ..

---

(١٢٥) سورة التوبة الآيتان ١٢٠ — ١٢١

اى أن السلاح فى الاسلام للتعمير لا للتدمير .. وحين يشرعه المسلم فى وجه عدو الله وعدوه .

فمن أجل ارهابه وكف يده حتى لا تمتد بأذى .. حفاظا على الدماء أن تراق .. مهما كانت عقيدة الانسان ..

* * *

وقد كانت استجابة المسلمين للاعداد صادقة :

كان عروة البارقى « يملك وحده سبعين فرسا معدة كلهـا للقتال ؟ !

وتصور معى هذا الجهد الموصول فى رعاية هذا الحشد من الخيل .. والذى يشغل الرجل وأهله .. وولده .. وتساءل معى: كم يبقى من عمر هذه الأسرة . تنفقه فى ملذات الحياة ؟ !

لا ريب أن المعركة ملأت حياتها الى حد لم يعد فى حياتهـا وقت للهو أو لعب .. حتى لغلمان لابد لهم من اللهو واللعب !

حتى الخيل نفسها تندمج فى الدور .. وتصبح ملاقاة العدو أيضا شغلها الشاغل ؟ ! :

فعن معاوية بن خديج :

انه مر على أبى ذر وهو قائم على فرس له .

فسأله :

ماذا تعالج من فرسك هذا ؟

فقال :

انى اظن أن هذا الفرس قد استجيب له !

قلت :

وما دعاء بهيمة من البهائم ؟ !

قال :

والذى نفسى بيده .. ما من فرس الا وهو يدعو كل سحر فيقول :

اللهم .. انك خولتنى عبدا من عبادك .. وجعلت رزقى بيده .. فاجعلنى أحب اليه من اهله وماله وولده ..

فانظر كيف كانت أمنية الفرس .. أن يظل فى وعى صاحبه ركوبا فى معركة الحق .. والا يشغل عنه بما يخلد به الى الأرض من مال وأهل وولد ..

انه التدبير الالهى اذن .. يجعل من البيئة الاسلامية معسكرا تدريبيا يوحى كله بالجهاد والاعداد .. الى حد يجعل من تعلم الرمى عبادة يتقرب بها العبد الى ربه .. بحث لو نسى الرمى يوما كان ذلك معصية ينبغى التوبة منها بالرجوع الى اجادتها والتدريب عليها ..

يقول صلى الله عليه وسلم :

(من ترك الرمى بعد ما تعلمه رغبة عنه .. فانها نعمة

تركها .. أو كفر بها) علــى أن يتم ذلك فى حــدود الاستطاعة البشرية .. وتبقى نتيجة المعركة بعد ذلك الى الله وحده ..

* * *

درس من غزوة بــدر :

وفى بدر حاول بعض الصحابة ان يستجيبوا لدوافع النفس الراغبة فى الراحة .. فرارا من تكاليف الحق .. فحسم الله تعالى القضية فى قوله تعالى :

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ ۝٥ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ
مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦
وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ
غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ
بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ
وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ ﴾ (١٢٦)

* * *

---

(١٢٦) سورة الانفال آية ٥ — ٨

لقد كرهوا خوض غمرات القتال ايثارا للراحة والرخاء الحاصل بامتلاك العير ..

وجادلوا الرسول فى ذلك جدال من يرى الموت بعينه فهو يتوقاه .. ولكن الله تعالى يريد احقاق الحق والتمكين له فى الأرض. ولن يكون ذلك بالاخلاد الى الراحة . بل بحمل السلاح دفاعا عنه .

ولو اتبع الحق اهواءهم لما ارتفعت للحق راية . ولا سمعت له كلمة . ولا انتصب ميزان .

ومن هنا كان لابد من القتال تحقيقا لمراد الله تعالى .. وتدريبا للكتائب المؤمنة على العيش فى الظروف الصعبة تمرسا بها . حفاظا على الأمانة التى حملوها .. ليسلموها للأجيال من بعدهم .. حتى تظل كلمة التوحيد باقية .. ودولة الحق قائمة .

بين بدر واحد :

بعد انتصار المسلمين فى بدر تحقق لهم ما يلى :

١ ــ ساد الاسلام وعلت كلمته .

٢ ــ استسلم بنو قينقاع من اليهود بعد أن حاصرهم المسلمون لنقضهم العهود وايذائهم المسلمين .

٣ ــ اسكت النصر صوتا معاديا كان يشبب بنساء المسلمين ويؤلب عليهم قبائل العرب وهو كعب بن الأشرف .

٤ ــ حاول ابو سفيان مستميتا ان يغزو المسلمين . وفاء بنذره الا يمس رأسه ماء حتى يتم ذلك . واثناء ذلك ظهر التحالف

الباغى بين المشركين واليهود حين نزل ابو سفيان علـــى ســـلام ابن مشكم سيد بنى النضير . فأذن له . وكان فى خدمته ..

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم تعقبه .. فرجع الى مكة خائبا .

* * *

الجبهـــة المعادية :

وقد ترتب على هذا أن حقد المشركون .. ومعهم اليهـــود المهددون اجتماعيا واقتصاديا بهذا النصر ..

يضاف اليهما المنافقون بقيادة عبد الله بن أبى .. وقـــد تنمر الأعراب حول المدينة . لخوفهم أن يكف الاسلام أيديهم عن النهب والسلب .

وقد اجتمعت كلمة هذه الجبهات على التصدى للمسلمين .. وكان الاعداد على قدر الرغبة المعادية فى دحر الاسلام :

كان هناك اعداد مالى من حيث رصدت تجارة قريش بحذافيرها لتكون وقودا للمعركة .

وكان هناك أيضا اعداد معنوى عن طريق الشـــعراء الذين حرضوا على النفير العام ..

وخرج المشركون بأبنائهم ونسائهم حتى لا تكون هناك فرصة للفـــرار .

* * *

ومع ذلك فقد كان المسلمون كالمهد بهم ابطالا .. وان فاتهم النصر احيانا .

اختيار صادف اهله

شرف الجهـاد :

فى غزوة احد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ : فقام اليه رجال فأمسكه عنهم ... حتى قام (ابو دجانة) فقال : وما حقه يا رسول الله ـ قال : ان تضرب به العدو حتى ينحنى .. قال : انا آخذه بحقه يا رسول الله فأعطاه اياه .. وقال الزبير بن العوام بعد ذلك : وجدت فى نفسى حين سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم السـيف فمنعنيه .. واعطاه أبا دجانة وانا ابن صفيه .. عمته .. ومن قريش .. وقد قمت اليه فسألته اياه قبـله .. وتركنى .. والله لأنظرن ما يصنع .. فأتبعته .. فأخرج عصابة له حمراء . فعصب بها راسه فقالت الانصار : اخرج ابو دجانة عصابة الموت فخـرج وهو يقول :

انا الـذى عـاهدنى خليـلى ونحـن بالسفح لدى النخيـل
الا اقـوم الدهـر فى الكيول اضرب بسـيف الله والرسول

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين راى ابا دجانة يتبختر : انا لمشية يبغضها الله .. الا فى هذا الموطن .

* * *

صور مشرقة للفداء :

عندما هزم المشركون فى بدر على ايدى المسلمين المجاهدين.. مشى عبد الله بن أبى ربيعة وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن امية فى رجال ممن فقدوا أبناءهم وآباءهم فى بدر .. تدفعهم غرائز الانتقام .. فى محاولة لتسليح الجيش ولم الشمل من جديد .. لانقاذ الكرامة المضيعة .. ويصور القرآن الكريم هذا بقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١٢٧)

ولم يكن المسلمون — وفى طليعتهم الشباب — فى حاجة الى من يثير فى صدورهم جذوة الحماس الى استئناف القتال من جديد.. فقد جاشت نفوسهم بأشواق عارمة الى ساحة النضال . واذا كان المشركون هناك فى دوامة النقاش .. يقلبون الرأى حول ضرورة التجمع لضرب المسلمين .. واذا تبجح اليهود فهونوا من شأن انتصار المسلمين فى بدر .. زاعمين أن لقاءهم غدا سوف يثبت أنهم وحدهم الناس .. الذين يجيدون صناعة الموت .. اذا كان الأمر كذلك فقد كان المسلمون على الجانب الآخر يتسابقون الى الموت .. كما يتسابقون الى الحياة .

---

(١٢٧) سورة الانفال آية ٣٦

على صورة من الفداء تبهر التاريخ بألوانها .

شمس لا تنطفىء :

ومن ابرز هذه الصور ما تحاول تأمله اليوم .. حين يندفع الصحابة بالمناكب حول قائدهم صلى الله عليه وسلم .. لينالوا شرف الجهاد فى سبيل الله .

وعندما يقع اختيارهم على رجل يكلفه بمهمة فدائية .. فان فرحته بهذا الاختيار وسروره بهذا التكليف لا يعادلهما سوى الاسف الشديد فى صدر زميل له .. فانه ذلك الشرف العظيم .. ان أبا دجانة لم يستطع ان يخفى سروره بدوره الخطير .. ففاض البشر على جوارحه التى تختـال تيهـا وفخرا .. وليرى اعداءه من نفسه قوة .

فاذا علمنا ان دوره الخطير قد يكلفه حياته. .برزت أمامنا روعة الفدائية التى صاغها الايمان . والتى تزرى بشائعات اليهود حول قوتهم المزعومة .. فى محـاولات يائسة لاطفـاء الشمس فى كبد السماء .. هذه الشمس التى لا تنطفىء ابدا .. كيف لا .. ومن روائها مدد من الزيت المبارك .

الشـوق الى الجنـة :

وحينما تقترب من الموقف نطالع من دقائقه ما يبهر الأبصار : فالقائد هنا لا يفـرض الدور على الجندى .. لكنه يفتح مجـال الاختيار أمام كل جندى يثق بنفسه .

واذ يقول صلى الله عليه وسلم متسائلا : (من يأخذ هذا السيف بحقه ؟) .

فانه يستدعى بالتساؤل مواهب الصحابة .. ويوقظ عزائمهم لتنهض للقيام بدورها مادامت تحس فى نفسها قدرة عليه .

وكانت ظاهرة صحية أن تسابق الرجال استجابة لتساؤل اثار فيهم الشوق الى الجنة .. وفى مقدمتهم ابن عمته : الزبير ابن العوام .

ويمسك القائد سيفه عن هؤلاء جميعا ثم يؤثر به أبا دجانة الذى سأل عن حق السيف .. حتى يراجع نفسه .. ويتحقق من قدرته على الوفاء به .

حتى اذا أحس من نفسه القدرة هب على الفور كأنما نشط من عقال .. وتقدم ليحمله .. فى صحبة أمل عظيم فى الله تعالى أن يكون عند حسن الظن به .. لا سيما بعد أن منع الجميع منه .. دونه .

دور الجندى المسلم :

وانها لفرصة حبيبة الى نفس الفدائى أن يضرب العدو حتى يحصد بالسيف رأسه .. فيوفيه حسابه .

وقد كان فى عرض الرسول . صلى الله عليه وسلم ما يكشف عن دور ذلك الجندى المسلم فى معركة تجىء عقب انتصار بدر .. وما يفرضه ذلك من فدائية لا بد منها اذ يبلغ الصراع حينئذ ذروته فى **معركة حياة او موت .**

ولا بد اذن من الجندى الجسور .. فى معركة لا مكان فيها للخائف الحذور .

وكان هذا التسابق الواضح دليلا على ارتفاع الأمة الى مستوى مسئولياتها .. وادراكها لطبيعة المعركة فى أحد .

قيم أصيلة :

وهذه القدرة العسكرية التى زكاها الايمان .. وتعهدها القائد العظيم لا تحجب أبصارنا عن التحول الاجتماعى الكبير . وعن جوهر التربية المحمدية الرامية الى تغير المفاهيم الخاطئة حتى بين يدى المعارك التى تشد اليها الانتباه .. ولا تبغى اهتماما بما سواها .

وما كان للجيش أن ينتصر أبدا ما لم يكن له سند من قيم اصيلة بقيم كيانه عليها .

هذه القيم التى تبدو فى موقفه صلى الله عليه وسلم من ابن عمته الزبير .

فابن عمته غاضب .. لانه تجاوزه الى « الأجنبى » .

مع أنه ابن عمته .. ثم هو من قريش .. بالاضافة الى أنه قد سبقه الى طلب السيف ؟؟ .. فلماذا لم يؤثره به ؟ .

فأنظر كيف كان العرض النبوى الحكيم فرصة ذهبية .. تعلن فيه الطبائع عن نفسها .. بما تظهره من مكنون سرها .. ولولا حكمة الرسول فى الاختيار لما ظهرت هذه الأسرار .. لكنها تبدو .. ثم تلاحق بالعلاج والتقويم .

مقياس الاختيــار :

ويحمل ابو دجانة سيفه .. ثم يمضى فى جو نزيه عادل .. فمعانى القرابة .. والانتماء .. والأولوية .. كلها .. بمقدار ما يبذل الانسان من نفسه .

فالمعركة اولا .. والمعركة اخيرا .

ان صلاحيتك لانجاز المهمة .. وانتماءك للمعركة .. هو وحده مقياس الاختيار .. وهو وحده مناط الحكم لك .. او عليك .

واذا كانت هناك أسماء لامعة .. تحاول فرض نفسها .. والاستئثار بموقف ما .. فان بين الجماهير الغفيرة جنودا بواسل.. يراهم القائد الملهم .. واذا لم يكن الناس يعرفونهم فيكفيهم شرفا ان الله عز وجل يعرفهم ببلائهم فى المعركة .. ويدخر لهم مقعد صدق عند مليك مقتدر . كفاء ما يقومون به من جهاد .

فالمعركة وحدها هى التى تبرز الكفايات .. لأنها وحدها مقر الامتحان العسير .. الذى لا يكتب المرء فيها تاريخه بقلمه .. ولكن .. بدمه .. وعرقه .

كفايات نادرة :

وهكذا نرى فى موقفه صلى الله عليه وسلم فراسة المؤمن الذى ينظر بنور الله تعالى .

لقد كان قلبه اكبر من ســـاحة القتـــال على اتساعها .. واستوعب به ما حوله .. ومن حوله .. ثم وازن .. واختار .

فأتاح بالاختيار فرصة برزت فيها كفايات نادرة .. كان من الممكن أن تعيش أيامها فى الظل بطاقاتها المعطلة التى لم تكشفها يد صناع.

ولا شك أن ابن العوام يدرك هذه المعانى جيدا .

وما كان له أن يضيع عمره فى نقد لاذع يستهدف به القائد وجنده .. أو فى هجوم موصول على موازين المجتمع الذى لم يحقق رغبته .

ثقة بالنصر :

بيد انه يحاول مخلصا أن يتحسس مواطن القوة فى أبى دجانة والتى رشحته لحمل السيف دونه .. ليحاول مثله الوصول ... ثم أنه كجندى مثله مشغول بالنصر الذى يسره ان يحقق على يد ابى دجانه أو على يده هو .. المهم .. أن ينتصر المسلمون .. ويخذل المشركون .. وليكن ما يكون ويكشف ابن العوام أحقية أبى دجانه بشرف الاختيار : لقد راعه حبه للحرية..وتغنيه بها ... (الا أقوم الدهر فى الكبول) .. فى القيود .. الحرية المحكومة بشريعة الله عز وجل المستهدفة سعادة الانسان حيثما كان .

وليست هى الفوضى التى يروج لها أدعياؤها .

وما أجمل أبا دجانه وهو يمشى تباها فخورا بما يملك من ثقة بالله .. وفرح بالجهاد فى سبيله .. وانها المشية تستحيل فى حلوق الأعداء غصة تشل من حركتهم .. وتطامن من كبريائهم .. بقدر ما تعلى قدر المسلمين .. وترفع معنوياتهم .

وهو ما تحقق فعــلا عندما هزم المسلمون فى أحد .. لكن نفوسهم بقيت متماسكة فى أحلك الظروف بيقينها بربها .. وثقتها بنصره المبين الذى ان لم يكن اليوم فغدا .

اليقين والزهـد :

وبعد : فقد قال صلى الله عليه وســلم : (نجا أول هذه الأمة باليقين .. والزهد .. ويهلك آخرها بالبخل والأمل) .

وما حدث من أبى دجانة صورة من صــور هذه النجاة التى كانت سمة العصر النبوى كله والتى كانت تستمد قوتها المعنوية والمادية من روافد اليقين .. والزهد فى الدنيــا وما تحفل به من أسباب التفرق والنزاع .. الذى يمتص من جسمها العافية .

والأمة الاسلامية مطالبة اليوم أن تستلهم عزها من تاريخها المجيد .. بالتخلق بأسباب النجاة كما تحدث بها رسول الله .

(ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا) .

دور المــراة :

وكان للمراة دورها المرموق فى غزوة أحد . وربمــا فاقت الرجال حينئذ فى الشجاعة والمصابرة :

قالت ام سعد بنت سعد بن الربيع :

دخلت على ام عمارة فقلت :

حدثينى خبرك يوم أحد . فقالت نسيبة رضى الله عنها :

خرجت أول النهار . ومعى سقاء فيه ماء . فانتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجعلت أباشر القتال . وأذب(١٢٨) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو فى اصحابه . والريح والدولة للمسلمين .

فلما انهزم المسلمون انحزت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجعلت أباشر القتال . وأذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف . وارمى بالقوس. حتى خلصت الى الجراحة.

قالت أم سعد :

فرايت على عاتقها جرحا له غور اجوف . اصابها به ابن قميئة اقمأه الله . لما ولى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اقبل يقول : دلونى على محمد . فلا نجوت ان نجا . قالت ام عمارة :

فاعترضت له لأمنعه انا ومصعب بن عمير . وأناس ممن ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فضربنى هذه الضربة . ولكن ضربته على ذلك ثلاث ضربات .

ولكن عدو الله كان عليه درعان .

وفى شرح المواهب للزرقانى عن عمر رضى الله عنه قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول — اه فى حق أم عمارة — (وما التفت يوم احد يمينا ولا شمالا الا واراها تقاتل دونى) .

* * *

---

(١٢٨) أدافع .

لقد كان للمراة « حضور » فى غزوة أحد .. ولم تكن فقط لتكثير السواد .. وانما هى الفدائية فى أعلى صورها :

فهى مدربة على استعمال مختلف الأسلحة :

تضرب بالسيف .. وترمى بالسهم .. فى حركة نشـــطة سريعة . شهد بها صلى الله عليه وسلم حين وجدها تدور حوله مستميتة .

وبلغت دقتها فى التدريب أنها كادت لتقتل ابن قميئة لولا ان كان عليه درعان .. الا أنها مع ذلك فاقته اذ ردت ضربته بثلاث ضربات ! .

وبقى جرحها الغائر دليل شرفها وبطولتها .. وفوق ذلك بقيت شهادة الرسول لها قلادة تتوج كفاحها المبارك .

هذا الكفاح الذى لم يكن صدفة . وانما كان قاسما مشتركا . وظاهرة من ظواهر الحروب الاسلامية . ومنها أحد :

فهذه امراة « من بنى دينار » فقدت زوجها . واخاها . وأباها فى أحد . فلما نعوا اليها قالت : فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالوا : خيرا يا أم فلان . هو بحمد الله كما تحبين .

قالت :

أرونيه حتى انظر اليه . فأشير لها اليـــه . حتى اذا رأته قالت :

كل مصيبة بعدك . اى هينة(١٢٩) .

وانت خبير بامرأة تفقد هؤلاء الأحبة .. لتواجه الحياة من بعدهم وحيدة .. ومع ذلك فلم يشغل بالها الا رسول الله صلى الله عليه وسلم . من حيث كانت الدعوة فى غيابه على خطر عظيم. فاذا مات الأحبة جميعا .. فقد بقى احبهم جميعا .. وظل أملها قويا. فى نصر قريب للحق الذى ملأ حياتها .. ويوم خرجت مع اعزائها .. فانما لتدعيم هذا الحق ورفع رايته .

فليذهب الأحباء .. وليبق الحق مرفوع اللواء .

***

الدور الانســـانى

للمرأة فى احــد :

وكان للمرأة « حضور » ايضا فى احد على المستوى الانسانى :

كانت عائشة . وام سليم رضى الله عنهما تنقلان القرب على متونهما تفرغانها فى أفواه القوم .

ثم ترجعان فتملآنها .ثم تجيئان فتفرغانها فىأفواه القوم(١٣٠).

وكانت « أم سليط » تزفر لهما القرب .

***

(١٢٩) سيرة ابن هشام ٢/٩٩
(١٣٠) راجع صحيح البخارى .

وهذه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زميلاتها على الجبهة العسكرية :

ولقد ساعدت زوجها عليا رضى الله عنه فى غسل دمه الجارى على وجهه .

فلما رأت فاطمة رضى الله عنها ان الماء لا يوقف الدم السائل اخذت قطعة من حصير . فأحرقتها . والصقتها . فاستمسك الدم .. واضعة بذلك أصلا من أصول التمريض لمن شاء ان يبحث ويستفيد .

* * *

الصبر الجميل :

وبقيت المرأة المسلمة عائذة بصبرها فى أعقاب أحد .. فلم تهزها الفجيعة هزا يفقدها صوابها :

اقبلت صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لتنظر الى حمزة أخيها الشهيد .. فقال صلى الله عليه وسلم لأبنها « الزبير بن العوام » القها فارجعها .. اشفاقا عليها .

فقال لها : يا أمه .. ان رسول الله يامرك أن ترجعى .

قالت : ولم ؟ وقد بلغنى أن قد مثل بأخى .

وذلك فى الله .. لأحتسبن . ولأصبرن ان شاء الله .

وأتته . فنظرت اليه . وصلت عليه . واسترجعت واستغفرت له .

نســاؤنا ونســاؤهم :

وبازاء هذا المستوى العالى للنسـاء المؤمنات فى الشجاعة .. والانسانية والصبر .. كانت نساء المشركين على العكس :

جعلت هند بنت عتبها وزميلاتها المشركات يمثلن بالقتلى من المسلمين .

يجدعن الآذان والأنف .

وبلغ التشفى مداه عندما بقرت بطن حمزةالشهيد ومضغتها.. ثم لفظتها .. واذ تعبر المؤمنات عن انسانية الاســلام .. دين المستقبل .. فقد عبرت الكافرات عن ضـيق الباطل وحمقه .. الذاهبين به غدا او بعد غد .. ليخلو الجو للدين العالمى الآخذ بيد الانسان الى التى هى أقوم .

دور الغلمــان :

ولم يكن الغلمان الصغار بأقل حماسا من ابائهم وامهاتهم :

وقد بلغ تنافسهم فى الجهاد مع رسول الله شأوا بعيدا :

وقد رد رسول الله صلى الله عليه وســلم مجموعة منهم لصغر سنهم وقلة خبرتهم .

وقد فرضت مصلحة الدعوة ذلك قرارا من الأضرار الناشئة عن قلة الخبره .

ومن الذين ردهم : « سمرة بن جندب » . و «رافع بن خديج» وهما ابنا خمس عشرة سنة .

ومن حسن حظ « رافع » أن كان أبوه معه لحظة التأهب للمعركة فشفع لأبنه قائلا : يا رسول الله : ان ابنى « رافع » رام . فأجازه صلى الله عليه وسلم .

ووجد زميله « سمرة » فى قلبه من الشجاعة ما يدافع به عن نفسه فقال لرسول الله : لقد أجزت رافعا . ورددتنى . ولو صارعته لصرعته ! .

ولما تصارعا . غلب سمرة رافعا .. فأجازه صلى الله عليه وسلم .

ونحن أمام أشبال فى سن الخامسة عشرة . يتدافعون بالمناكب . وسط الرجال .. تحدوهم رغبة مشتعلة أن يكونوا من المجاهدين .

ولم تكن مجرد أمان تجيش بها أنفسهم . وانما كان للأمانى سندها من هذا الطموح الجاد .

« فرافع بن خديج » ابن الخمسة عشر ربيعا ماهر فى الرمى .

و « سمرة بن جندب » مصارع حر .. يملك جسما رياضيا سليما .

وفوق ذلك يملك قدرا من الشجاعة الأدبية حطم به حاجز الحياء فدافع عن نفسه وكسب الرهان ! .

* * *

وفى ذلك فليتنافس المتنافسون :

وهكذا يتنافس الشباب :

لقد حاولت احصاء الساعات التى ضاعت من عمر الشباب المتحمس فى معركة الانتخابات الاخيرة .

وادركت أن مئات الساعات راحت هباء فى محاولة الحصول على مقعد من مقاعد مجلس الشعب .

مئات الساعات ضاعت من آلاف الشباب فى سبيل هذه الغاية الدنيوية القريبة .. بينما كان الشباب فى مثل سنهم يتنافسون فى الجنة ونعيمها .

لا يتنافسون فيها بالكلام والأمانى العذاب .

ولكن بالتدريب على حمل السلاح فى بواكير حياتهم .

وكان من لطف الله بالأمة أن يبدأ انتشار الاسلام بهؤلاء من امثال « رافع » .. و « سمرة » .

والا فلو قدر للاسلام أن ينتشر على أيدى صناع الكلام .. ومدبرى التجمعات والشعارات .. لما وصل الينا الاسلام اليوم!!

* * *

ومع ذلك فما زالت الآمال حية فى قلوبنا أن يصحو شبابنا يوما ليروا دورهم الحقيقى فى مجالات الخدمة العامة . ترقية للحياة . واسعادا للأحياء .. واعزازا للأمة .

الآثار الحميدة لغزوة أحـــد :

قال ابن حجر(١٣١) :

(قال العلماء : وكان فى قصـــة أحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانيـــة أشياء عظيمة منها :

تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية . وشؤم ارتكاب النهى. لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذى أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم الا يبرحوا منه .

ومنها : أن عادة الرسل أن تبتلى . وتكون لها العاقبة .

والحكمة فى ذلك انهم لو انتصروا دائما دخل فى المؤمنين من ليس منهم . ولم يتميز الصادق من غيره .

ولو انكسروا دائما لم يحصل المقصود من البعثة .

فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب.

وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفيا عن المسلمين . فلما جرت هذه القصة واظهر اهل النفاق ما أظهره من الفعل والقول عاد التلويح تصريحا . وعرف المســـلمون أن لهم عدوا فى دورهم . فاستعدوا لهم . وتحرزوا منهم .

ومنها ان فى تأخير النصر فى بعض المواطن هضما للنفس . وكسرا لشماختها .

---

(١٣١) فتح البارى ٣٤٧/٧ (يراجع زاد المعاد ٩٩/٢ : ١٠٨)

فلما ابتلى المؤمنون صبروا . وجزع المنافقون .

ومنها : أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل فى دار كرامته . لا تبلغها أعمالهم .

فقيض لهم أسباب البلاء والمحن ليصلوا اليها .

ومنها : أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها اليهم .

ومنها : انه أراد اهلاك أعدائه . فقيض لهم الأسباب التى يستوجبون بها ذلك : من كفرهم . وبغيهم . وطغيانهم فى أذى أوليـــائه .

فمحص بذلك ذنوب المؤمنين . ومحق بذلك الكافرين) .

خواطر حول فتح مكة

قصة حاطب بن أبى بلتعة
ونفي تهمة التجسس عنه

تحت عنوان « موقف الاسلام من التجسس » تحدث الأستاذ / محمود بيومى عن الجاسوسية وخطر الجاسوس الناشىء عن دوافعه المدمرة من الحقد والخيانة . والتى تسول له التورط فى عمل قد يكلفه حياته .. راجعا بذلك كله الى سوء تربيته . وسوء طويته معـا .

❊ ❊ ❊

ثم انتقل مباشرة الى الحديث عن أول واقعة تجسس فى الاسلام متمثلة فيما كان من الصحابى الجليل « حاطب بن أبى بلتعة » فى فتح مكة . والذى أثبت عليه تهمة التجسس .

❊ ❊ ❊

والحديث على هذا النحو يزج بهذا الصحابى الجليل الى ساحة التجسس . وما تثيره من روائح الغدر والعمالة والنفاق . كما وضح الكاتب فى مقدمته .. مع أن الرسول صلى الله عليه

وسلم طوى هذه الصفحة من تاريخ « حاطب » بعد ما تبين الحق. ووضح السبيل . عائدا به رضى الله عنه الى الصف الاسلامى كما كان .. بل لعله بالتوبة عاد أحسن مما كان .

ولو أن الكاتب الفاضل تجاوز عن مقدمته فلم يذكرها قاصرا حديثه على تبيان الحكم الشرعى فى الموضـــوع .. لكان الأمر مقبـــولا .

اما أن يتحدث عن الغدر .. والدناءة .. ثم يضرب الصحابى مثلا .. فهذا ما يفتح النار على قمم فى الايمان قل أن يجود بمثلها الزمان .. وهو ما يفرض علينـــا فى نفس الوقت تجليه القضـــية بما يحق الحق . ويقف بهذا الصحابى الجليل حيث وضعه الرسول صلى الله عليه وسلم نجما .. يهدى الحائرين .

* * *

فمن هو حاطب بن ابى بلتعة ؟

وما هى مظاهر الحكمة فى حياته ؟

وما الذى فعله يوم الفتح ؟ وأثار الزوبعة حوله ؟

وهل ينطبق عليه تعريف التجسس ؟

ثم كيف برئت ساحته .. وبقى على قمته ؟

وما هو الدرس المستفاد ؟

* * *

بطاقة معرفــة

لم يكن « حاطب بن أبى بلتعة » من أنفسهم « بضم الفاء .. كما جاء فى الحديث الشريف . أى لم يكن ينتسب الى قريش نسبا وولادة . وانما انتسب اليهم حلفا وولاء . واذن .. فقد كان ــ من الناحية الاجتماعية ــ خفيف الوزن !

وبالتالى .. فان اعلانه الاسلام شهادة له بالفضل .

وكيف ؟

ان رجلا كعمر .. أو خالد .. رضى الله عنهما .. عندما يعلن اسلامه فان له عشيرة تحميه . كما وأنه فى ذاته قوة رادعة لمن يتصدى له .

أما حاطب بن أبى بلتعة .. فان اعلانه الاسلام بينما هو لا ينتمى الى القبيلة .. انتماء عضــويا .. ومركــزه الاجتماعى لا يسنده ــ شهادة على صدقه وأصالته . وأنه بتكوينه غير قابل للنفــاق ! .

والا .. فلو كان قابلا له .. لمارسه يوم أن كان بين قريش.. القوية ولم يكن من ورائه خط دفاع يحميه .. بيد أنه لم يفعل .

شـــهادة دولية

بعث رســـول الله صلى الله عليه وســـلم « حاطبا » الى « المقوقس » عظيم القبط فى مصر . يدعوه الى الاسلام .

وما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلف لهذه المظيمة الا كفئها العظيم .. حاطب بن ابى بلتعة .

والذى أكد نجاحه فى مهمته توفيق الرسول فى اختياره لدوره المناسب .. سفيرا لوطنه الى ملك طبقت شهرته الآفاق .. فكان عند حسن الظن به فى عرضه قضيته ثم فى حواره الحكيم مع المقوقس :

قال حاطب للمقوقس :

« ان هذا النبى . دعا الناس . فكان اشدهم عليه قريش . واعداهم له اليهود . واقربهم منه النصارى .

ولعمرى . ما بشارة موسى بعيسى الا كبشارة عيسى بمحمد .

وما دعاؤنا اياك الى القرآن . الا كدعائك أهل التوراة الى الانجيل . وكل نبى أدرك قوما فهم امته . فحق عليهم أن يطيعوه .

وانت ممن أدرك هذا النبى . ولسنا ننهاك عن دين المسيح. ولكننا نأمرك به »(١٣٢) .

ولم يكن حاطب مجرد رسول يحمل رسالة خطية أو شفهية.. ولكنه مستعد لكل ما تثيره الرسالة من تساؤلات يجيب عنها .. مؤكدا بحكمته صحة اختياره : لما قال المقوقس لحاطب :

« ما منعه ان كان نبيا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟

---

(١٣٢) زاد المعاد ج ٦١/٣

فقال حاطب :

ما منع عيسى ــ وقد أخذه قـومه ليقتلوه ــ أن يدعو الله عليهم فيهلكهم .

فقال المقوقس :

أحسنت .. انت حكيم . جاء من عند حكيم » .

ثم حمله بالوان من الهدايا الرامزة الى تقـدير الرسـالة والرسول .

وهكذا نجحت « الدبلوماسية » العربية الاسلامية فى كسب ثقة المقوقس بثقله الدولى .. والتى انتزعت شـهادته بالحكمة انتزاعا .

وكان نجاح المهمة مردودا الى السفير الباقعة(١٣٣) .. حاطب ابن أبى بلتعة !

* * *

وتقديرا من أبى بكر رضى الله عنه لحاطب نراه يبعثه أيضا الى المقوقس . فصالحهم . ولم يزالوا كذلك حتى دخلها عمرو بن العاص(١٣٤) .

* * *

---

(١٣٣) الباقعة : الداهية .
(١٣٤) راجع فتح البارى مجلد ٢٧٥/٩

ماذا فعل حاطب ؟

ولنقرا كتاب حاطب رضى الله عنه الى قريش .. لنرى على مرآته نوايا الرجل :

(أما بعد :

فيامعشر قريش : ان رســـول الله صلى الله عليه وسلم جاءكم بجيش كالليل . يسير كالسيل .

فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله . وأنجز له وعده .

فانظروا لأنفسكم . والسلام . حكاه السهيلى(١٣٥)) .

تحليل الخطاب :

انه بسطوره القليلة نذير مدمدم يستجيش فى قلوب قريش مشاعر الخوف لتراجع نفسها .

وان لم تفعل .. فماذا هى فاعلة امام جيش يحجب الأفق ؟

وقائد لو جاءهم وحـــده لهزمهم .. لأن معه القـــوة التى لا تغلب .. والنصر مضمون له سلفا .

والنتيجة ؟

أن يتفكروا .. ويتشاوروا .. ثم يرفعوا الراية البيضاء .. مستسلمين .. ثم يأتوه مسلمين !

فأين هى رائحة الغدر هنا ؟

(١٣٥) فتح البارى مجلد ٥٢١/٧

واين معنى الجاسوسية فى خطابه ؟

ان خطابه لشاهد بايمانه بالله وبرسوله .. وسنته فى نصرة المؤمنين .. ثم هو شاهد ايضا ببراءته فى ضوء اللغة التى تعرف الجاسوس فتقول :

(جسه بيده جسا . من باب قتل . واجتسه . ليتعرفه . وجس الأخبار . وتجسسها : تتبعها .

ومنه الجاسوس . لانه يتبع الأخبار . ويفحص عن بواطن الأمور) (١٣٦) وقد فرق العلماء بين صنفين :

الجاسوس وهو (صاحب سر الشر) .

والناموس وهو (صاحب سر الخير) .

ولقد كان رضى الله عنه « ناموسا » ولم يكن جاسوسا !!

وسطور كتابه كما هى ناطقة بايمانه .. فانها ناطقة بثمرة هذا الايمان وهى : النصيحة لله .. ولا ظل هناك لنفاق .. ولا تتبع .. وتسقط للأخبار .. فما هكذا يفعل الأخبار !

* * *

استفسار وليست محاكمة :

بعد أن كشف الوحى الأعلى أمر حاطب .. لم تكن محاكمة بقدر ما كانت استفسارا يوضح ما حدث .. وان شئت قلت بلغة العصر : « طلب احاطة » .. وليس « استجوابا » ؟!

فما شك الرسول لحظة فى ايمان رجل شهد بدرا !

(١٣٦) المصباح المنير .

حاطب يشرح أبعاد الموقف :

بدأ رضى الله عنه أولا يطمئن الرسول والذين آمنوا معه على انه ما زال على العهد مؤمنا :

(من حديث جابر رضى الله عنه :

قال : اما أنى . لم افعله غشا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا نفاقا . قد علمت أن الله مظهر رسوله . ومتم له امره) (١٣٧) (لم افعله ارتدادا عن دينى . ولا رضا بالكفر بعد الاسلام(١٣٨)) .

* * *

لكن ما الذى حمله على أن يفعل ما فعل .. مع منافاته لعقيدته التى مازالت كما هى ؟

يجيب رضى الله عنه فيقول :

(يا رسول الله : لا تعجل على .

انى كنت امرءا ملصقا فى قريش — يقول كنت حليفا — ولم اكن من أنفسها — بضم الفاء .

وكان من معك من المهاجرين من بها قرابات يحمون أهليهم وأموالهم . فأحببت اذا فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى(١٣٩)) .

---

(١٣٧) حياة الصحابة ج ٢/٤١٠
(١٣٨) راجع فتح البارى آخر مجلد ٧
(١٣٩) الموضع السابق .

ولك الله يا حاطب !

ما كان أغناك عن هذا التمزق .. وهذا العذاب .. وهذا الحرج .. لو كنت تبحث عن الدنيا !

وما كان أسهل عليه لو أنه فضـــل البقاء مع أهله وماله فى مـــكة .

لكن العقيدة التى آثرها .. تحمله اليوم فـــوق ما يحمل البشر .

وحتى فى أحلك ظروفه لا يتهاون فيها .. انه فقط يقدم لقريش جميلا « صوريا » لا ثمرة له ولا جدوى منه بعد أن تأكد من نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم .. والذى لن تقدمه الرسالة ولن تؤخره .

انه واقع تحت ضغوط خطيرة من غرائز تشده الى أهله .. بما فيهم والدته العجوز .. ولا بأس أن يقدم الى قريش « شيكا بلا رصيد » يحمى به آله .. وماله !

اقتناع النبى صلى الله عليه وسلم :

وقد اقتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قاله . وخاطب أصحابه قائلا :

(أما انه قد صدكم) .

وتحت وطأة الاحساس بما كان يترتب على خطاب حاطب .. تستمر الحملة الضارية عليه بقيادة عمر الذى يطالب الرسول براسه ؟ !

فلما ذكره صلى الله عليه وسلم بأنه « بدرى » .. داخل فى رحمة الله تعالى منذ شكل بالنصر المبين حجر الزاوية فى صرح الاسلام .. لما ذكره .. بكى عمر .

عمر الذى أنكر ظاهر فعل حاطب لمناقضته عقيدته .. ولمخالفة توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم فى التعمية على قريش .. انه يبكى الآن .. ويغسل بدموعه ثورته على أخيه حاطب .. الذى تبدو صورته الآن أنقى .. وأصفى .

لقد جاء فى الأثر :

تجاوزوا عن ذنب السخى .

فان الله آخذ بيده كلما عثر .

وفاتح عليه كلما افتقر .

ونحن مطالبون بأن نسقط من ذاكرتنا كبوة الجواد . الذى شهد بدرا .. وكان بشهوده على قمة السخاء بالنفس .. والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

* * *

معنى شهادة الرسول :

ولهذا التسامح النبوى مغزاه :

لقد حكم صلى الله عليه وسلم فى الاطار القرآنى .. وفى ضوء الآيات القرآنية الحاكمة باذهاب الحسنات للسيئات اذهابا لا يبقى للخطيئة أثرا .

قال ابن قيم الجوزية فى زاد المعاد(١٤٠) فى معرض بيان الأحكام المأخوذة من فتح مكة :

(وفيها أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تكفر بالحسنة الكبيرة الماحية كما وقع الجس من حاطب مكفرا بشهوده بدرا .

فان ما اشتملت عليه هذه الحسنة العظيمة من المصلحة . وتضمنه من :

محبة الله لها ورضاه بها وفرحه بها ومباهاته للملائكة بفاعلها أعظم مما اشتملت عليه سيئة الجس من المفسدة . وتضمنته من بغض الله لها .

فقلب الأقوى على الأضعف فأزاله وابطل مقتضاه .

وهذه حكمة الله فى الصحة والمرض الناشئين من الحسنات والسيئات .. الموجبين لصحة القلب ومرضه .

وهو نظير حكمته تعالى فى الصحة والمرض اللاحقين للبدن .

---

(١٤٠) ج ١٧١/١٧٠/٢

فان الأقوى منهما بقهر المغلوب ويصير الحكم له حتى يذهب أثر الأضعف .

فهذه حكمته فى خلقه وقضائه . وتلك حكمته فى شرعه وأمره .

وهذا كما أنه ثابت فى محو السيئات بالحسنات لقوله تعالى .

﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ (١٤١)

وقوله تعالى :

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ (١٤٢)

وقوله صلى الله عليه وسلم واتبع السيئة الحسنة تمحها .

فهو ثابت فى عكسه لقوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ (١٤٣)

وقوله .

○ ـــــــــــــ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ

(١٤١) سورة النساء آية ١١٤
(١٤٢) سورة النساء آية ٣١
(١٤٣) سورة البقرة آية ٢٦٤

﴿ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (١٤٤)

* * *

براءة

وبهذا البيان تثبت براءة حاطب رضى الله عنه .. هذا البيان المشتق من بيان القرآن النازل فى هذه الواقعة .. وفى صدر سورة الممتحنة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ (١٤٥)

فلم يزل يحتفظ لحاطب بوصف الايمان .. مع ما فعله من افشاء السر .. ثم لا يتجه اليه الخطاب منفردا وانما تصبح القضية عامة تهم المسلمين جميعا ليكونوا على حذر من التورط فى أمر كهذا مادامت الطبيعة البشرية واحدة ومعرضة للخطأ .

وبعد فان مقام الصحابة فوق الشك والتهم . ومنزلتهم الكبرى لا تطاولها منزلة . ولو انفق غنى ما يساوى ميزانية دولة كبرى ما بلغ بالانفاق مواطىء اقدامهم .

قال صلى الله عليه وسلم :

---

(١٤٤) سورة الحجرات آية ٢
(١٤٥) سورة الممتحنة آية ١

(لا تسبوا اصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن احدكم انفق مثل احد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه(١٤٦) .

ولا يشفع لنا أنهم بشر يخطئون .. فمازال حقهم فى التقدير والاجلال محفوظا .

(عن ابن عباس قال :

لا تسبوا اصحاب محمد . فان الله عز وجل قد أمر بالاستغفار لهم . وهو يعلم أنهم سيقتتلون ويحدثون) المرجع السابق ٩١٠ .

واذا كانت قوانين الأمم اليــوم تســقط السابقة من سجل المخطىء بعد سنوات افلا يجمل بنا أن نسقط خطأ حدث منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ؟!!

لقد حمل حاطب بن أبى بلتعة مع اخوانه المجاهدين أرواحهم على أكفهم .

وبهذه العزمة الرشيدة .. وضع صرح الاسلام حجر الزاوية الذى سمق به البناء وارتفع .

واذ ترصد الأمم بلايين الجنيهات تغنيا برصيدها من الرجال .

فحق هؤلاء علينا أن نقيم لهم فى قلوبنا ذكرا .. نستبقيهم به فى وعينا منارات .. تهدينا سواء السبيل .. والله المستعان .

* * *

---

(١٤٦) فضائل الصحابة ج ٢/٩٠٩

الدعوة بين الملحمة .. والمرحمة :

عندما دخل صلى الله عليه وسلم مكة فاتحا .. ودانت له الرقاب التى طالما عادته . بدأت مهمته الحقيقية بفتح القلوب لترى النور .. فتصحو :

وذلك عن طريق الرحمة فى أعلى مراتبها : العفو عند المقدرة.

دخل عليه رجل يرجف فؤاده . فقال له صلى الله عليه وسلم:

(هون على نفسك . انما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد) « اللحم المجفف » فانظر ماذا ترى :

قائد الجيش المظفر يمسك بزمام الموقف . ومن ورائه عشرة آلاف مقاتل . والاحساس بالسرور يتنامى بالعودة الى أحب بلاد الله .. الى الله .

وكل الدلائل تشير الى أن تصفية الحساب القديم توشك أن تبدأ .. جزاء عدلا .

وافضل درجات التفاؤل لا تتوقع أبدا الا .. القصاص .

ولكنه صلى الله عليه وسلم يرتفع فوق مستوى هذه الاعتبارات كلها .

وينسى حظ نفسه . ليتصرف فى حدود مصلحة الدعوة .. فلا غرابة أن يتخذ العفو القادر ركوبا الى فتح قلب الرجل .. ليختار فى ظل هذا العفو ما يحلو له .. والموقف مع ذلك درس من دروس التربية النبوية :

فالرسول القائد يخفف من هلع الرجل أولا ..

وفى هــذا الجو الذى تبرز فيه المباهاة لتقول كلمتها فى غيبة الايمان .. يؤثر صلى الله عليه وسلم ذكر أمه :

(أنا ابن امرأة) .

ومع أن العرب تتأبى على ذكر الأم فى المخاطبات أنفة .. فانه عليه الصلاة والســلام يؤكد للرجل : أن الذى يكلمك ابن امرأة .. مجرد امرأة .. كسائر الأمهات .. وكأمك أنت بالذات.. فهو شريكك فى المنشأ ولا يملك الا أن يعاملك على هذا الأساس .

ثم هى امرأة :

لم تتلفع بفضل مئزرها .. ولم تسق فى العلب .. كما تفعل النساء المترفات .. ولكن كان غذاؤها اللحم المجفف فى الشمس .. هذا الطعام الشعبى المتداول لقد كانت بســيطة بساطة هــذه الصحراء .. نقية نقاء هذه السماء وأنت خبير بأن لحظة الانتصار فى حياة القواد تنسيهم ذلك الماضى المتقشف .. وانهم ليتحدثون وكأنهم ولدوا وفى أفواههم ملاعق الذهب .

وقد يتصورون أن الحديث عن قسوة المــاضى مما يخدش بطولتهم .. ويهون من شأنهم .

ولكنه صــلى الله عليه وسلم يذكر الحقيقة بكل تفاصيلها .

يذكرها بكل صــدق دون خوف على شخصيته أن تمس لأنه ابن امرأة .. فقيرة .. لانه كان يرتكز فى وجوده على ما هو أسمى

من ذلك كله .. انه الايمان بالله عز وجل .. ومتى توهجت حقيقة الايمان بالله تعالى فى قلب المؤمن .. فلا يضيره ما عداها مما يتنافس فيه المتنافسون .

واذا خاف أصحاب الشخصيات الزجاجية على أنفسهم من حصاة يرميها غلام .. فينكسرون .. فان المؤمن صخرة صلبة .. أو بحر عريض .. عريض .

لا يضر البحر أمسى زاخرا ان رمى فيه غلام بحجر

انه الفرق الهائل كما قيل بحق بين الزعامة النبوية التى تهب نفسها للمثل الأعلى . والزعامة الدنيوية التى تخضع الحياة لحاجات نفسها .

* * *

الملحمة .. والمرحمة :

وفى لحظة الانتصار أشرف القائد الأعلى بنفسه ليطمئن على سلامة الوجهة .. وليضمن بقاء العفو والرحمة شعارا عمليا .. وفى موقفه من سعد بن عبادة — فى فتح مكة — شاهد على ما نقول :

مر سعد بن عبادة بأبى سفيان . فقال له :

اليوم يوم الملحمة . اليوم تستحل الحرمة . اليوم أذل الله قريشا .

ولقد خاف بعض الصحابة من رد الفعل الناشىء عن هذا الشعار العصبى لا سيما ولأبى سفيان كلمة فى قومه يمكن أن تعرقل المسار . ولو قليلا .

ولقد كفاهم أبو سفيان المهمة حين اشتكى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

يا رسول الله . ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال : وما قال ؟ قال : كذا وكذا .

فاستنكر صلى الله عليه وسلم مقالة سعد وقال : بل اليوم يوم المرحمة .

اليوم يعز الله قريشا .

ويعظم الله الكعبة .

* * *

تحليل الموقف :

لقد جاءت دولة الاسلام اليوم .. بل عادت الى مكة أم القرى .. ولكن على أى ركوب تجىء دولة الاسلام ؟

لقد أرادها سعد بن عبادة نهرا من الدم تفجره سيوف المسلمين تفجيرا .. ويترك الموقف لمشاعر الانتقام تقول كلمتها فى أناس يجب أن يذلوا جزاء ما قدمت أيديهم .. وهكذا تقول شريعة العدل .

وفى معمعة النضال .. يشكو أبو سفيان .. وتصل شكواه الى القائد الأعلى الذى أصدر قراره بعزل سعد بن عبادة فورا !

وكان القرار فى حد ذاته نصرا أعظم مما أراده سعد بن عبادة .

ان قتل الرجال لا يساوى شيئا ازاء اكتساب قلب رجل .. يفىء بالعفو الى الاسلام .. ويخرج الله من صلبه من يحب الله ورسوله .

ثم :

هل مهمة الجندى المسلم مجرد هزيمة العدو .. أم هى بالدرجة الأولى هدايته ليزداد الصف الاسلامى به قوة ؟

* * *

حكمة الرسول :

لكن قراره صلى الله عليه وسلم بأخذ الراية من سعد فيه من حكمته عليه السلام نفائس :

لقد كان هناك اعتباران لابد من أخذ القرار على أساسهما :

١ — أبو سفيان .. يعيش أسوأ لحظات حياته .. فقلبه مجروح .. ولابد من جبر خاطره .

٢ — فى نفس الوقت .. فان لسعد بن عبادة ماضيا جليلا فى خدمة الدعوة ينبغى الا يمس !

واذن .. فليجبر خاطر أبى سفيان .. سياسة .. ولكن لا على حساب سعد بن عبادة .

وهنا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ان تعطى الراية التى كان يحملها سعد الى ابنه « قيس » .

اى أنها لم تخرج من بيت سعد .. بل انها فى يد أحب الناس اليه .

وفى نفس الوقت .. فقد هدأت نفس أبى سفيان لما أخذت الراية من سعد هذا الذى تجهم له .. وتوعده .

ولم يكتف صلى الله عليه وسلم بهذا لكنه أراد « تقنين » هذا الموقف بشعار جديد ينبغى رفعه على أنقاض الشعار الذى رفعه سعد بن عبادة .. تبصرة وذكرى :

ان دولة الاسلام تعود .. بالمرحمة .. لا بالملحمة !

والطريق مفتوح أمام قريش لتأخذ سبيلها الى عزها .. بالاسلام .. وهكذا كل المعاندين الى الأبد .

وسوف تظل الدعوة ماضية فى سبيلها .. ناشرة ظلها .. على جناحين من الرحمة .. والعفو .

وفى غيبة مشاعر الانتقام .. لتحل محلها نوايا السلام .

هذا السلام الذى اتاح للدعوة أن تخط مجراها فى دنيا الناس فى صلح الحديبية فحققت ما لم تحققه المعارك الساخنة .

* * *

ان جزءا من حماسنا — المتحدر الينا من حماس « سعد » رضى الله عنه — ينبغى أن يتجه طوفانه الى : الضعيف ليقوى .. والمريض ليشفى .. والمظلوم لينهض .. وآلات المصانع لتدور .. والأرض البكر لتزهر وتثمر .. وعلى أكتاف هؤلاء الأقوياء .. تقوم دولة الاسلام .. التى قد تتأخر عودتها كثيرا أو قليلا .. لكنها آتية على أى حال رحمة مهداة . ونعمة مسداة .

* * *

شباب على طريق الاسلام يحصدهم الموت
ولكنهم يزرعون الحياة

من حق الشباب اليوم أن يمدوا أيديهم الى ما فى الحياة من صور المتـــاع الحسن .. ولا تثريب عليهم اذا هم تقلبوا فى البلاد سياحة تجدد نشاطهم .. تجـــديدا يعينهم على اداء دورهم فى دنياهم .

فالطبيعة من حولنا مأدبة حافلة بأطايب الطعام .. ولا بأس على العين أن ترى .. ولا على القلب أن يخفق..ولا على الأعصاب ان تحس .. فى غير معصية الله تعالى .. ذلك شىء مهم فى حياة الشباب .. وأهم منه أن تعـــود بهم ذاكراتهم الى تاريخهم المجيد عودة يعمق بها اعتزازهم بأنفسهم .. وتفتح أبصارهم على ما فى تراثهم من مواقف مشرفة .. قام بها شباب أمثالهم .. فكانوا شاهد صدق على ما فى شبابنا من طاقة .. تمكنه من الصعود الى أعلى.. فلا تقف به همته عند الخضرة .. والماء . لكنها تجعل منه سلاحا من أسلحة القدر .. يعلم الناس فن الحياة .

وفيما رواه الامام احمد رضى الله عنه واحد من هذه المواقف:

كان شباب من الأنصار سبعين رجلا .. يقال لهم القراء . قال : كانوا يكونون فى المسجد فاذا أمسوا انتحوا ناحية من المدينة.. فيتدارسون ويصلون . يحسب أهلوهم أنهم فى المسجد .. ويحسب أهل المسجد أنهم فى أهليهم .. حتى اذا كانوا فى وجه الصبح .. استعذبوا من المساء .. واحتطبوا من الحطب .. فجاءوا به فأسندوه الى حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فبعثهم النبى صلى الله عليه وسلم جميعا فأصيبوا يوم بئر معونة.

فدعا النبى صلى الله عليه وسلم على قتلتهم خمسة عشر يوما فى صلاة الغداة) .

فأنظر .. ماذا ترى ؟

انهم نموذج من شباب هذه الأمة .. قد استعلى بايمانه فوق لهو الحياة ولعبها .. فكان سهر الليالى فى مدارسة العلم .. والتعلق بالمسجد ذكرا وصلاة متعته وزاده .. ولئن كانت الخضرة والماء بعض مآربه .. فانه ولكى تبقى الحياة مخضرة .. لابد من تضحية ودماء تجرى .. لتظل الأرض مخضرة .. تنبت من كل زوج بهيج .

لابد من معانى الكفاح .. والايثار .. والجد والوحدة .. حتى اذا دعا الى البذل داع .. كان هناك من هذه المعانى رصيد تنطلق به القافلة الى أمام .. والا .. فلو جلس كل انسان مستغرقا فى متعته .. لما وجدت الدنيا يدا تستنبت الخضرة .. ولا آلة تجرى الماء .. فماذا فى المشهد من معان تستلفت النظر ؟

كانوا سبعين شابا .. اعنى فى مرحلة الاعتزاز بالرأى .. وتحكيم المزاج .. لكنهم كانوا (رجـــالا) .. توحدت كلمتهم .. حول منهج معين .. وطريق مرسوم .. بلا خوف .. ان مبادىء الايمان واضحة فى أذهانهم وضوحا يؤدى بهم الى الالتفاف حولها.. والعمل من أجلهـــا .. نظرية ســـليمة .. قابلة للتطبيق فى دنيا الواقع .. على نحو تتحول به الفكرة الى حياة نابضة بالحركة .. فعلام الاختلاف اذن .. وقـــد ذهبت دواعيه ؟

ليس هنا مزاج شخصى يتحكم .. بل الكل جماعة واحدة .. الى هدف واحد .. ولعل وحدة الكلمة .. اقرب الى تحرير النفس مما لو كان هناك فكر سديد لا يجد الجماعة التى تتحمل مسئوليته.. أسوة بهؤلاء الســـبعين من الرجال .. لقـــد انتصرت اسرائيل علينا .. مع فساد الأفكار التى تقوم عليها .. وذلك باتفاق كلمتهم علينا .. وربما خذل المســـلمون أنفســـهم حين لم يرتفعوا الى مستوى ايمانهم بالله عز وجل .

اما هؤلاء الشباب .. فكانوا بمسلكهم الرائع صـــورة عملية تتجسد بها المفاهيم .. وتستقر بها المبادىء .

فكانوا فى الســـلم طـــلاب علم يقترب به الانسان من خالقه سبحانه .

وفى الحرب .. صاروا جندا يدوخ الله بهم الباطل .. وعلى اساس من العلم والعمل قامت حياتهم :

علم يتدارسونه فيربطهم بالحياة .. وتصح به صلتهم بالله تعالى .. وبالمجتمع الذى يعيشون فيه .. فيردون اليه الجميل

فى صور ذلك الماء العذب .. وهذا الحطب الجزل .. يقدمونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. اى أن تحصيل العلم لم يلههم عن اداء واجبهم .. هكذا تطوعا .. ولو كان ذلك الواجب قربة ماء يحملونها .. أو حزمة حطب يجلبونها .

ولم تكن منهم أنفة من عمل كهذا .. وربما تعافه بعض النفوس المترفة .

وانها لزكاة ترمز(١٤٧) الى شرف العمل مهما كان نوعه .. وهو نموذج مفقود فى صفوف شبابنا الذين يجيدون فقط فن النقد والتجريح .. بينما هم يأكلون مما عملت ايدى غيرهم .

انهم فقط .. ينقدون .. وما أسهل النقد ثم هم لا يعملون .. فما أصعب العمل ..

ان العلم فى الاسلام — كما يفهم من موقف هؤلاء الشباب — يمهد السبيل الى تربية النفس .. التى تنشط به الى عمل الخير .. ويتم ذلك كله فى سرية تامة .. فلا يعلم اهلوهم .. ولا أصحابهم فى المسجد بما يفعلون .. فليس هناك شعارات براقة تزحم الأفق .. بلا عمل .. بيد أنه العمل فى صمت ابتغاء رضوان الله تعالى .. طبق فهم مرسوم .. ووقت مقسوم بين العبادة والعمل .

فاذا علمنا أن هذا الشباب من (الأنصار) من أهل المدينة وممن يساكنون اليهود .. أدركنا فى نفس الوقت بعدا آخر من

---

(١٤٧) من باب قتل . وفى لغة من باب ضرب .

ابعاد هـذه الوثبة المباركة .. لقد تحالف بنو قينقاع مع الأوس.. وتحالف بنو قريظة وبنو النضـير مع الخزرج .. فكانت الأوس تقترض من بنى قينقاع .. والخزرج تقترض من حلفائها .. وكان لهذا الحصار الاقتصـادى المضروب آثاره فيما زينه اليهود من رذائل .. وما بثوه من مكر ودهاء عكروا به صفو الطبيعة العربية. فاذا نجح هذا الشباب فى مدراسة العلم .. ثم فى تتويجه بالعمل ، واذا وصـلوا بالعمل الى كسر هـذا الحصار المضروب .. ورد الكيد اليهودى الى نحـور أعدائهم .. ثم الاحتفاظ بالولاء للدين ومحبة رسول الله صـلى الله عليه وسـلم اذا استطاع هـذا الشباب ان يثبت وجوده فى دوامة المـكر اليهودى .. فان ذلك دليل على ما فى شبابنا من امكانيات مازالت صالحة لاستئناف الدور فى عصرنا الحاضر . وعـودا على بـدء .. نبنى كمـا كانت أوائلنا .. تبنى .

لقد كانوا — بمسـلكهم العملى — بنجـوة من تأثير اليهود المتربصين بهم باعتبارهم قـوة الغد .. وقادة المستقبل .. وكان تقلبهم بين المسجد .. والبيت .. دليلا على روحهم الجادة .. التى لا يتسـع وقتهـا للجلوس فى سـاحات اللهو .. ومواطن العبث .. وهو نفسه المسلك الذى رشحهم للقيام بدعوة الناس الى الاسلام : وفى لحظة غدر استشهدوا .. فحزن عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم .. وفاء لهم .. وتقديرا لدورهم .. ولموقفهم الصامد فى لحظة الموت .. لقد كانوا يزرعون الحياة .. بينما الموت

يحصدهم حصدا ..(١٤٨) يقول .. جبار بن المسلمى .. وكان واحدا ممن قتلوا هذا الشباب .

ان مما دعانى الى الاســـلام .. أننى طعنت رجلا منهم يومئذ بالرمح بين كتفيه .. فنظرت الى ســـنان الرمح حين خـــرج من صدره .. فسمعته يقول :

فزت والله ؟ .

فقلت فى نفسى :

ما فاز .. لقد قتلت الرجل !! .

قال : حتى سألت بعد ذلك عن قوله .. فقالوا :: يعنى فاز بالشهادة .

فقلت : فاز لعمر الله .

ان معنى جديدا للنجاح يبرز الآن .. وليس هو الحصول على رتبة أو درجة علمية .

ولكنه النجـــاح الساحق فى ساحة الاستشهاد حين ترخص الروح فى سبيل الله .

---

(١٤٨) لقد دعوا الى الله بدمائهم وأرواحهم يبذلونها .. قبل أن يدعوا اليه بكلامهم واناشيدهم .

خاتمة

لم تحظ سيرة من سير العظماء بمثل ما حظيت به سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم :

١ ـ كان له تسع زوجات كلهن مأمورات بنشر كل ما يرونه من شئونه قليلها وجليلها .

٢ ـ الى جانب الصحابة المأمورين بالتبليغ عنه .. ولو آية واحدة .

٣ ـ يضاف الى ذلك اعداؤه الذين تربصوا به .. وحاولوا ان يجدوا فيه مطعنا .. أو مغمزا .. فما وجدوا الا فصا من الماس .. اينما طالعته .. بهرتك أشعة من سناه .

وناهيك بعظيم يرصده أصحابه فى أدق صفاته .. حتى وصفوا رمحه .. وسيفه .. ودرعه .. ونعله .. وقيامه .. وتبسمه .. ثم يتواصى أعداؤه بالتفتيش عن تهمة واحدة فى خلقه .. فلا يجدون .

انه العظيم الذى يتحدى به ربه البشر جميعــا .. تحديا يجعل من رسالته قضــية لا تقبل الجدل .. ومن شخصه صلى الله عليه وســلم حجة قائمة على الناس . شــاهدة بأنه على الحق المبين .

الأمر الذى يفرض على الدعاة اليــوم مسئولية ابراز جوانب هذه العظمة فى سيرته صــلى الله عليه وسلم .. وفى الوقت الذى أحس المثقفون من اتباع المذاهب الأرضــية بالفراغ الناشىء عن فقدان الاجابات الشافية عن هذه الأسئلة :

من اين ؟ والى أين ؟

ولا شك أنهم سيجدون فى سيرته العطرة ما يشفى الغليل . ويبل الصدى .

قال المستشرق « ماسينون » :

(يكفى لتعرف أوروبا محاسن رسول الله محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومحامده . أن ينقل كتاب « الشفا » للقاضى عياض. الى احدى اللغات الأوروبية) .

واذا أتيح لأوروبا أن تعرف محاسن الرسول صلى الله عليه وسلم .. لو أحيطت علما بهذا السفر الجليل .. فقد بقيت خطوة أخرى على الطريق الطويل .. وهى : أن يدخل المنصفون هناك فى دين الله أفواجا .

ولن يتم ذلك لمجــرد وقوفهم علي طريقــة أكله .. وصفة سيفه .. ولون خضابه الى غير ذلك من سنن العادات التى يحفظها

بعض الشباب اليوم . ثم يغالون بها مغالاة تنسيهم ما يحويه البحر فى أعماقه البعيدة من لؤلؤ ومرجان !

وكما أن الحق تعالى سخر لكم البحر .. لا لامتاع العين .. بمشهده الرائق فقط .. بل لتأكلوا منه لحما طريا .. وتستخرجوا منه حلية تلبسونها .. فانه تعالى لم ينعم علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم لنتغنى فى المحافل بلون عينيه .

وانما لنحشد كل قوانا الذهنيـــة والوجدانيـــة فى محاولة لاستكشاف مواطن العظمة فى شـــخصه الـــكريم .. ثم تجليتها للناس .. وعلى مرآتها سيرون العظمة فى آفاقها العالية .

ان الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (١٤٩)

وحرف الجر « فى » هنا .. يهيب بالمتأملين .. أن يرتفعوا الى مستوى « المتوسمين » .

« المتوســمين» الذين يتجـاوزون القشرة البـــادية الى الأعماق .. الى القدوة الحسنة .. التى صــارت اليوم أنجح وسائل الدعوة .. وهو الأمر الذى حاولت الاسهام فى تحققه بهذه الصفحات .

ولقد كان هــذا المعنى يلح على خاطرى وانا اكتبها منطلقا من تجاربى فى حقل الدعوة ..ومعايشتى لشباب لا ينقصهم الاخلاص بقدر ما ينقصهم الفهم العميق المستوعب :

---

(١٤٩) سورة الأحزاب آية ٢١

لقد شغلوا أنفسهم بأمور ثانوية . غافلين عن الحقائق الناصعة فى سيرته صلى الله عليه وسلم . وعن مواطن الأسوة الفعالة .

وانك لترى أحدهم يرفع يديه فى الدعاء حتى ليكاد يكشف عن ذراعه ليرى بياض ابطه اقتداء بالرسول الكريم .. فاذا رحت تسأله عن فقه هذا الدعاء .. وعما فيه من دلائل البعث والتفاؤل والعمل .. سكت !

فاذا أردت أن تلزمه كلمة التقوى حاول أن يشغب عليك بما يحفظ من نصوص ينثرها هكذا بلا وعى .

وصار الأمر على ما يقول الامام محمد عبده :

(جمود احكام الشريعة جر الى عسر حمل الناس على أعمالها .

كانت الشريعة الاسلامية أيام كان الاسلام اسلاما .. سمحة . تسع العالم بأسره . وهى اليوم تضيق عن أهلها .. حتى يضطروا الى أن يتناولوا غيرها . وأن يلتمسوا حماية حقوقهم فيما لا يرتقى اليها . وأصبح الأتقياء من حملتها يتخاصمون الى سواها) .

ان المشركين الذين نشأ بينهم محمد صلى الله عليه وسلم قد أجمعوا على أنه : الصادق . الأمين .

ولم يكن هذا الاعتراف مردودا على صحيفة يملكها تنوه بصدقه وأمانته .

وانما كانت حياته العملية شاهد صـــدق على انه كذلك .

(كان يتعاطى فيهم التجارة . ويعاملهم فى أمور الحياة ليل نهار . وهى الحياة اليومية . وما تنطوى عليه من اخذ وعطاء ومن شأنها أن تكشـــف عن اخـــلاق المـــرء . فيتبين للناس فسادها وصلاحها .

وهى عيشـــة طويل طريقها . كثيرة منعطفـــاتها . وعرة مسالكها . تعترضها وهدات مما قد يصـــدر عن المرء من خيانة . واخفار عهد . وأكل مال بالبـــاطل . وعقبـــات من الخديعة . والخيانة . وتطفيف الكيل . وبخس الحقوق . واخلاف الوعد .

***

ان الرسول صلى الله عليه وســـلم اجتاز هـــذه السبيل الشائكة الوعرة . وخلص منها سالما نقيا . لم يصبه شيء مما يصيب عامة الناس . حتى لقد دعوه بالأمين .

وان قريشا بعد بعثه كانوا يودعون عنده ودائعهم واموالهم لعظيم ثقتهم به .

ولقد هاجر صـــلى الله عليه وسلم . وخلف « عليا » ليرد ما كان لديه من الودائع الى اهلها(١٥٠)) .

وهذا جانب واحد من جوانب حياته صلى الله عليه وسلم.. وهو فضيلة تشـــكل جنديا يقف الى جانب الداعية يؤكد للناس

---

(١٥٠) البعث الاسلامى جمادى الأولى ١٤٠٥

صدقه .. ويلقم حجرا كل فم يحاول الاقتراب من ساحته الطهور مدعيا منكرا من القول وزورا .

وهو الأمر الذى نؤكد عليه .. ونلفت نظر الدعاة اليه .. حتى اذا دعوا الى الله تعالى .. اقتطفوا من خلاله العظيمة باقات من الروح والريحان تسر الناظرين .. وتنجد الطالبين .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل

الفهرس

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٩٠ / ٤٤٦١

لترقيم الدولى I.S.B.N. 977-205-002-2

مطابع الأهرام بكورنيش النيل